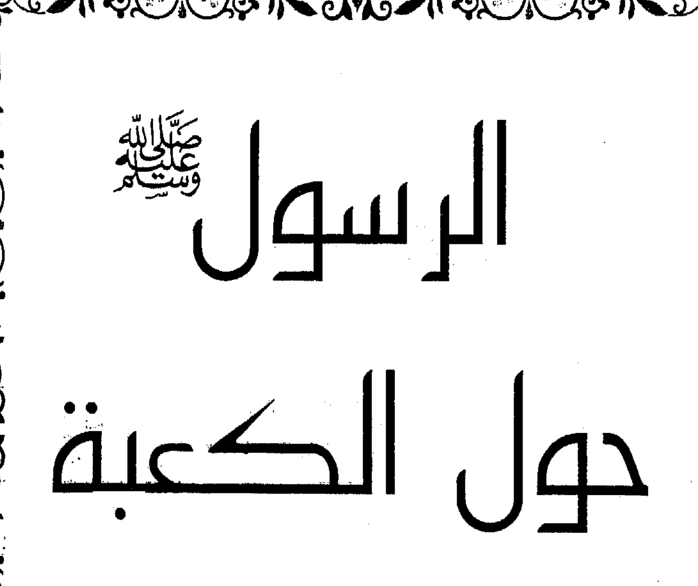


الدكتور . محمد سيد أحمد المسير

مكتبة الصفا







الرسول ﷺ حول الكعبة

الدكتور. محمد سيد أحمد المسير

مكتبة الصفا

١٢٧ ميدان الأزهر ـ القاهرة

١ درب الأتراك ـ خلف الجامع الأزهر

ت : ٠١٠١٤٣١١١٤ ـ ٥١٤٧٣٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

رقم الإيداع : ١٩٨٨ / ٢٠٠١

مكتبة الصفا

١٢٧ ميدان الأزهر - القاهرة

١ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

ت: ٥١٤٧٣٢٠ - ٠١٠١٤٣١١١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . .

أما بعد ..

فالسيرة النبوية لسيدنا محمد ﷺ عطاء متجدد من مكارم الأخلاق، وجلائل الأعمال، وكبريات القيم العليا. . الأمر الذي يدفع أصحاب القلوب الشريفة والعقول النزيهة إلى حسن الاقتداء بها، والدعوة إليها، ونشر أريجها في الآفاق. .

ولا نحسب أن الباحثين في عصر من العصور يستقون رحيقها بأجمعه، إلا أن كلاً يدلي بدلوه ويمنح الله ما يشاء لمن يريد. .

وها نحن أولاء نقدم الطبعة الثالثة من كتابنا. . «الرسول ﷺ حول الكعبة» استجابة لرغبة كثير من القراء الكرام، داعين الله عز وجل أن يجمعنا على حسن المتابعة لرسوله، وصدق الولاء لدينه، ووحدة القبلة المشرفة التي نستقبلها أحياء وأمواتا. .

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾(1).

أبو حذيفة

د. محمد سيد أحمد المسير

أستاذ العقيدة والفلسفة - كلية أصول الدين

جامعة الأزهر

القاهرة في] ١٥ من رمضان المعظم ١٤٢١هـ
] ١١ من ديسمبر ٢٠٠٠ م

(١) سورة آل عمران / ٩٦.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى..

أما بعد: فقد اجتمع لهذا الكتاب شرف المكان وشرف الموضوع، فقد بدأت الكتابة فيه وانتهيت منه في المدينة المنورة برسول الله ﷺ.

ويتمثل شرف الموضوع في الكعبة، البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنًا.

وهذه الدراسة جزء من فلسفة السيرة النبوية، نحاول أن نجلي فيها علاقة الرسول بالكعبة تاريخًا، وأحداثًا، وشعائر.. في عرض موضوعي يشد المؤمن إلى آفاق عليا هي أسمى آمال الإنسان وأقدس أمانيه.

وقد جاءت الدراسة - بفضل الله- على ثلاثة بحوث:

البحث الأول:

مرحلة الانتقال من العصر الجاهلي إلى العهد الإسلامي:

فميلاد محمد بن عبد الله ﷺ يرتبط بحدث إلهي يحفظ الكعبة ويصون حرمتها.

وشباب محمد ﷺ يرتبط بتجديد بناء الكعبة، ويحظى الصادق الأمين بشرف وضع الحجر الأسود.

ثم تبدأ بشائر الوحي من قمة جبل النور.

وتمضى مرحلة جهاد وتبليغ تنطلق من جوار الكعبة، وتتخذ من معالم الحرم منابر للدعوة.

ويدور الزمان وتقع أحداث وأحداث إلى أن يصدق الله رسوله الرؤيا بالحق، ويؤدي المسلمون عمرة القضاء في العام السابع من الهجرة.

ثم جاء نصر الله والفتح وطهرت الكعبة وأصبحت مكة في حمى المسلمين.

ثم كانت براءة الله ورسوله من المشركين يوم الحج الأكبر.

البحث الثاني: من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى:

وهو خاص بالإسراء والمعراج في توثيق روايته، وفقه أحداثه، وبيان آيات ربه الكبرى.

البحث الثالث: شعائر الله:

وتتمثل هذه الشعائر في رحلات الرسول ﷺ لأداء العمرة، والمواقف المشهودة التي صاحبت أداء هذه المناسك إلى أن جاء العام العاشر للهجرة وخرج الرسول لأداء حجة الإسلام، يصحبه فيها مائة ألف أو يزيدون يرددون في جنبات الكون: لبيك اللهم لبيك.

وتتوج هذه الحجة بتنزيل إلهي: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[1].

وأخيرًا أُفضي للقارئ بتأملات حول واقع الحج المعاصر تحكمني فيها قواعد الشريعة وأصول الفقه وصولاً إلى الرفق بضيوف الرحمن.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2].

أبو حذيفة

د. محمد سيد أحمد المسير

١٤ من ذي القعدة ١٤٠٩هـ

١٨/٦/١٩٨٩م

---

(١) سورة المائدة، الآية ٣.

(٢) سورة البقرة، الآيتان ١٢٧-١٢٨

البحث الأول

مرحلة الانتقال

من العصر الجاهلي إلى العهد الإسلامي

- عام الفيل .
- تجديد بناء الكعبة .
- في غار حراء .
- من الصفا إلى العقبة .
- قبلة الصلاة .
- الفتح المبين .
- فتح مكة .
- براءة من الله ورسوله.



عام الفيل

جاء في صحيح مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه: أن أعرابيًّا قال: يا رسول الله، ما تقول في صوم يوم الاثنين؟ فقال ﷺ: «**ذاك يوم وُلدت فيه، وأُنزل عليَّ فيه**».

جمهور العلماء على أن ذلك الميلاد الشريف كان في شهر ربيع الأول لثنتي عشرة ليلة خلت منه.

نص عليه ابن إسحق، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن جابر وابن عباس -رضي الله عنهم- أنهما قالا:

«ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وفيه بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات».

وعام الفيل هذا يشير إلى واقعة عجيبة تتجلى فيها قدرة الله تعالى.

ذلك أن أبرهة حاكم اليمن من قبل النجاشي بالحبشة، بنى كنيسة في صنعاء، وجعلها رفيعة البناء، عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء، وكتب إلى النجاشي: (إني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب).

وتذكر كتب السيرة هنا أنه لما تحدث العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي، غضب رجل من كنانة فخرج حتى أتى القليس (الكنيسة) فقعد فيها -أي أحدث- حيث لا يراه أحد، ثم خرج فلحق بأرضه، وانتهى الخبر إلى أبرهة فقال: من صنع هذا؟

فقيل له: صنعه رجل من أهل هذا البيت الذي تحجه العرب بمكة.

فغضب أبرهة، وسير جيشه لهدم الكعبة.

ويعلق العلامة أبو الحسن الندوي على هذا قائلاً[١] :

(يمكن أن يكون السبب في حملة أبرهة أهم وأوسع من حادث أُريد به تنجيس معبد.

وأن يكون قصد أبرهة فتح مكة لربط اليمن ببلاد الشام، وتوسيع حكم النصرانية ونفوذها في الجزيرة العربية، وكان ذلك في صالح الروم والحبش وهم نصارى على السواء.

وكانت هذه الخطة مهما كانت الدوافع إليها تؤدي إلى خراب البيت الذي قدر له أن يكون هدى ومثابة للناس، ومصدر النبوة الأخيرة، وتجريد مكة من سيادتها الروحية.

وذلك ما لا يرضاه الله.

ويجوز أن يكون الروم هم المحرضين لأبرهة على فتح مكة لمآربهم السياسية، ومنها إضعاف نفوذ الفرس المنافس الوحيد للنفوذ الرومي على بلاد العرب).

ومهما يكن من سبب فإن أبرهة جهز جيشًا قويًّا ومعه فيل ضخم يسمى (محمودًا) وله سائس يسمى (أنيسًا)، وله قائد، الله أعلم باسمه، لم يذكره كتَّاب السيرة.

وتسامع العرب بزحف أبرهة، فرأوا أن جهاده حق عليهم، ومقاومته فريضة.

وخلال مسيرة الجيش من اليمن إلى مكة اعترضته بعض القبائل وقاتلت، وتخاذل البعض وتراجع..

---

(١) السيرة النبوية، ص٩٠، طبعة منشورات المكتبة العصرية - بيروت.

فلما انتهى إلى مكة استولى على أموال لقريش وغيرهم وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها..

فهمّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به..

وأراد أبرهة أن يتعرف على سيد هذا البلد، ويتفاوض معه قبل أن يقدم على هدم الكعبة، فأحضروا له عبد المطلب، وكان وسيمًا بهي الطلعة، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه، ودار حوار سجلته كتب السيرة هكذا:

قال أبرهة لترجمانه: قل له ما حاجتك؟

فقال عبد المطلب: حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي.

فقال أبرهة: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمني فيه؟!!

فقال عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه..!

فقال أبرهة: ما كان ليمتنع مني..!!

فقال عبد المطلب : أنت وذاك..!!

وينتهي الحوار بأن يسترد عبد المطلب الإبل ويذهب مسرعًا إلى قريش يأمرها بالخروج من مكة، والتحرز برءوس الجبال حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً..

ويأخذ عبد المطلب بحلقة باب الكعبة، ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه..

وتروى أشعار في هذا الموقف منها :

لا هم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدوًا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك[١]

ويجيب الله تعالى دعوة المضطر، وتتولى القدرة الإلهية الدفاع عن البيت الحرام ليظل مثابة للناس وأمنًا، فأرسل عليهم جماعات من الطير، تحمل حجارة خاصة، مزقتهم إربًا إربًا، واجتاحتهم الأوبئة التي بددت قوتهم.

ورجع أبرهة إلى اليمن وهو يتساقط أنملة أنملة، فما كاد يصل حتى انصدع صدره فمات..

وبقي من بقي منهم عبرة لمن يخشى..

ويروي ابن إسحق عن عائشة ﵂ أنها قالت: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان..!![٢]

ويسجل القرآن الكريم هذا الحدث التاريخي في سورة تحمل اسم الفيل، فيقول تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

والأبابيل: الجماعات ولا واحد له من لفظه.

والسجيل: حجارة خاصة أعدها الله للطاغين ولعلها من جنس ما ذكره الله تعالى في مثل قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾[٣].

والعصف: ورق الزرع الذي يعصف أي يقطع. وتفرقه الريح فإذا أكلته الدواب راثته.

هذا وقد يتساءل البعض: أي الفريقين كان أهدى سبيلاً، أبرهة بنصرانيته،

---

(١) لاهم: اللهم، المحال بالكسر: القوة والبأس، غدوًا: غدًا.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفى السقا وآخرين جـ ١ ص ٥٧ ط الحلبي.

(٣) سورة الذاريات، الآيات ٣٢-٣٤.

أم قريش بوثنيتها؟!

ويجيب الإمام ابن كثير في تفسيره:

(وكان دينهم -أي أصحاب الفيل- إذ ذاك أقرب حالاً مما كانت عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام وُلد -على أشهر الأقوال- ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، لكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء).

وقد يتساءل آخرون: إن الكعبة تعرضت للهدم أكثر من مرة، ودار حولها قتال بين المسلمين أنفسهم أيام نزاع ابن الزبير والأمويين، ولم يرسل الله طيراً أبابيل.. فما الحكمة من ذلك؟

ويمكن أن نقول: إن الكعبة في العصر الجاهلي تولى الله حمايتها بنفسه، ولم يشأ جل جلاله أن يقاتل المشركون وينتصروا حتى لا يقال انتصر الشرك على النصرانية..

أما في العهد الإسلامي فأصبحت حماية الكعبة فريضة نتعبد الله بها، وأضحت حرمتها أمانة في أعناق المسلمين استحفظوا عليها تكليفًا شرعيًّا فمن وفَّى فله الجنة، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه.

ولا ننسى أن عناية الله تعالى بالبيت العتيق لا تزال تشمله وتكلؤه، وفي كل حدث ألم بالكعبة تحدث الناس عن خوارق للعادات أحاطت به..

بقي تنبيه: وهو أن الكنيسة التي بناها أبرهة وأرادها بديلاً عن الكعبة بقيت كما هي بعد هلاك أبرهة وتراجع الجيش عن اليمن، لا يجرؤ أحد من أهل اليمن على أخذ شيء منها، وأشاعوا أن من أخذ شيئًا أصابته الجن.. فلم تزل كذلك إلى زمن السفاح أول خلفاء بني العباس، فبعث جماعة من أهل العزم والحزم فنقضوها حجرًا حجرًا، فاندرست آثارها إلى الأبد..

تجديد بناء الكعبة

حفظ الله تعالى البيت الحرام، وقامت قريش على عمارته وسقاية الحاج إلى أن جدت ظروف دعت قريشًا إلى تجديد بناء الكعبة قبيل البعثة المحمدية..

وقد ذكر علماء السيرة أسبابًا لذلك أهمها:

١- أن سيلاً أتى من فوق الردم الذي بأعلى مكة فأضر البيت، فخافوا أن يدخله الماء.

٢- أن امرأة أجمرت الكعبة فطارت شرارة في كسائها فأحرقتها.

٣- أن الكعبة كانت غير مسقوفة فأرادوا رفعها وتسقيفها.

ومهما يكن من أمر فإن الرسول ﷺ قد شارك في هذا التجديد، والبناء، وكانت سنه يومذاك خمسة وثلاثين عامًا.

وجاء في صحيح الحديث أنه ﷺ حين جددت قريش بناء الكعبة المشرفة كان ينقل الحجارة مع قومه، يحملها على عاتقه وإزاره مشدود عليه، فقال له عمه العباس: يا ابن أخي، لو جعلت إزارك على عاتقك؟!

ففعل فسقط مغشيًّا عليه ثم قال: «إزاري.. إزاري..» فشد عليه إزاره وقام يحمل الحجارة.

وفي ذلك حرص على ستر العورة وطهارة العرض.

وقد اتخذت قريش عدة مواقف تدل على هيبتهم وتعظيمهم لذلك البيت العتيق، منها:

أولاً : حرصوا حرصًا شديدًا على أن تظل كافة النفقات بعيدة عن الرجس والسحت، حتى قال قائلهم : يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيبًا، لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس.

وفي رواية: لا تجعلوا في نفقة هذا البيت شيئًا أصبتموه غصبًا، ولا قطعتم منه رحمًا، ولا أنهكتم فيه ذمة أحد بينكم وبين أحد من الناس.

وينسب هذا التحذير إلي أبي وهب خال عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول الكريم ﷺ، أو إلى الوليد بن المغيرة.

ثانيًا: تروي كتب السيرة أن الناس هابوا هدم الكعبة وأصابهم خوف شديد، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها.

فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم تُرع[1].

وفي رواية: اللهم لم نزغ[2]، اللهم إنا لا نريد إلا الخير.

ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة ينتظرون ما قد يحل على الوليد من غضب الرب تبارك وتعالى، فأصبح الوليد من ليلته غاديًا على عمله، فاستبشر الناس، واطمأنوا إلى أن الله رضي صنيعهم فباشروا هدمها.

ثالثًا: أجمعت قبائل قريش كلها على المشاركة في شرف بناء الكعبة، فكانت كل قبيلة تجمع الحجارة على حدة وتبني الجزء المخصص لها، حتى بلغ البنيان موضع الحجر الأسود، فاختصموا فيمن يحظى بهذا الشرف العظيم حتى تحزبوا وأعدوا للقتال.

ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا ثم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا، فقال الوليد بن المغيرة: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه.

فكان أول داخل عليهم هو سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ.

فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا.. هذا محمد.

---

(١) لم تفزع الكعبة ولا نريد الاعتداء عليها من الرَّوْع وهو الخوف.

(٢) لم ننحرف عن دينك وتعظيم بيتك من الزيغ وهو الانحراف.

فقال ﷺ : هلم إليّ ثوبًا، فـأتي به، فأخذ الحجر فوضعـه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعًا. . ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه سيدنا محمد بيده الشريفة ثم بُني عليه.

وهكذا حلت كلمة الوفاق محل الشقاق ببركة سيدنا محمد ﷺ وحكمة عقله.

والملاحظ على عملية البناء هذه أنهم لم يتمكنوا من بناء الكعبة على قواعد إبراهيم عليه السلام، فأخرجوا منها الحِجْر وهو ستة أذرع أو سبعة.

وجعـلوا للكعبـة بابًا واحدًا من ناحـية الشـرق، وحرصـوا على أن يكون مرتفـعًا ليتمكنوا مـن السيطرة على الداخلين، فيـسمحوا لمن شـاءوا ويمنعوا من شاءوا.

وكان لسيدنا رسول الله ﷺ وجهة نظر أفصح عنهـا فيما بعد، فقد جاء في الصحيـحين عن أم المؤمنين عائشة ﵂ أن رسـول الله ﷺ قال لها: «**ألم تري أن قـومك قصـرت بهـم النفـقة، ولولا حِـدْثان[1] قـومك بكفر لنقـضت الكعبـة وجعلت لها بابًا شرقيًّا وبابًا غربيًّا وأدخلت فيها الحِجْر**».

ويعلق الإمام ابن كثير على هذا الحديث قائلاً[2]:

(ولهذا لما تمكن ابن الزبير بناها على ما أشـار إليه الرسول ﷺ، وجاءت في غاية البـهاء والحسن والسناء، كاملة على قـواعد الخليل، لها بابان ملتـصقان بالأرض شرقيًّا وغربيًّا، يدخل الناس من هذا ويخرجون من الآخر.

فلما قـتل الحجاج ابن الزبير كـتب إلى عبد الملك بن مروان وهو الخلـيفة يومئـذ، فيما صـنعه ابن الزبير، اعتـقدوا أنه فعل ذلك من تلـقاء نفسه، فـأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه، فعمـدوا إلى الحائط الشامي فحصوه، وأخرجوا منه

(١) الحدثان بكسر فسكون بمعنى الحدوث والقرب.

(٢) السيرة النبوية - تحقيق مصطفى عبد الواحد، ج١ ، ص ٢٨٢.

الحجر، ورصوا حجارته في أرض الكعبة فارتفع باباها وسدوا الغربي واستمر الشرقي على ما كان عليه..

فلما كان في زمن المهدي -أو ابنه المنصور- استشار مالكًا في إعادتها على ما كان صنعه ابن الزبير، فقال مالك رحمه الله تعالى: إني أكره أن يتخذها الملوك ملعبة..!!

فتركها على ما هي عليه فهي إلى الآن كذلك).

هذا ومما يجدر التنبيه إليه أن الكعبة شيء والمسجد الحرام شيء آخر.

فالكعبة بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في أول الأمر وبادئ العهد، وقد يطلق عليها المسجد الحرام باعتبارها مكان السجود وقبلته.

أما المسجد الحرام فهو المحيط بالكعبة، وأول من بناه عمر بن الخطاب ﷺ، أخر البيوت من حول الكعبة واشتراها من أهلها وهدمها، وحين تولى الخلافة عثمان بن عفان ﷺ زاد في المسجد بشراء دور أخرى ألحقها به.

ومن يومها إلى الآن والزيادات تطرأ عليه، والتحسين والتشييد قائم على قدم وساق حتى يتسع لجموع المسلمين الوافدين من كل فج عميق، والمتزايدين عامًا بعد عام.

بقي تساؤل قد يطرح نفسه وهو:

هل كان للكعبة وجود سابق على زمن إبراهيم الخليل؟

والحق الذي لا مرية فيه أن ظاهر القرآن والسنة يفيد أن إبراهيم عليه السلام هو الموجه إليه الخطاب بشأن هذا البيت العتيق، وهو المكلف برفع قواعده، وتوجيه النداء التاريخي للناس بأداء الحج.

قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٥ .

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1].

وحين تحدث القرآن المجيد عن أولية البيت ربطه بذكر إبراهيم فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[2].

وجاء في الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

(قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «**المسجد الحرام**» قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**». قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**»).

ومن المعروف أن المسجد الأقصى هو بناء يعقوب وهو ابن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام، فيكون يعقوب قد اكتسب صنعة البناء من جده الخليل عليه السلام، واقتفى أثره في تشييد بيوت الله تعالى.

وكل ما يذكره الناس حول البيت قبل إبراهيم عليه السلام لم يثبت به نص، ولم تقم به حجة، وهي روايات الله أعلم بها.

* * *

---

(١) سورة الحج، الآيتان ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان ٩٦ و ٩٧.

في غار حراء

جاء في صحيح البخاري عن عائشة أم المؤمنين ﵂ قالت: (أول ما بدئ به ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء).

هيأ الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ لتلقي الوحي، فلم يصبه شيء من سفاح الجاهلية، واشتهر في قومه بأنه الصادق الأمين، ووقعت إرهاصات كثيرة قبل بعثته، مثل حفظ الكعبة من هجمة الأحباش، وبركته عند حليمة السعدية، وتنبؤات الراهب بحيرا، وما رآه ميسرة خلال رحلة التجارة إلى الشام.. وغير ذلك كثير.

ولكن عائشة هنا تحدثنا عن الإعداد النهائي قبيل تلقي الوحي.

فقد مكث ﷺ الستة الأشهر الأخيرة لا يرى رؤيا إلا تحققت كما رآها.

وقد كان ﷺ يتعبد في غار حراء، وهو كهف في قمة جبل بينه وبين مكة نحو ثلاثة أميال.

والكهف من حيث الموقع الجغرافي والتكوين الجيولوجي مكان ملائم لإثارة خيال الإنسان وقوى التأمل فيه، وعلى مدى العصور كان الكهف ملجأ للإنسان من غوائل الطبيعة كما كان رمزًا للرفض الفردي لأوضاع اجتماعية ونظم سياسية.

ويحدثنا التاريخ عن قصة أصحاب الكهف التي حكاها القرآن المجيد، وهم فتية آمنوا بربهم، وآثروا الفرار بدينهم من بطش قومهم وجبروت حكامهم، فأووا إلى الكهف ولبثوا فيه ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا..

وعبادة الرسول ﷺ قبيل البعثة كانت خلوةً واعتزالاً لباطل قومه ووثنيتهم، وكانت فكرًا وتأملاً في ملكوت السموات والأرض، وكانت نظرًا إلى الكعبة المشرفة من قمة جبل النور في محاولة لاستنطاق التاريخ عن قيمة هذا البيت العتيق وقيمه، كما كانت عبادته ﷺ إطعامًا للمساكين..

ويروي ابن إسحق أن رسول الله ﷺ كان يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره- الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعًا أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته.

وهذا الشهر الذي اختاره الرسول الكريم ﷺ للتعبد هو شهر رمضان كله أو معظمه.

وفي اليوم السابع عشر من شهر رمضان في السنة الحادية والأربعين لميلاد المصطفى ﷺ، الموافق السادس من شهر أغسطس سنة عشر وستمائة لميلاد المسيح عليه السلام[1] كان يوم الوحي الأول، ومجيء الحق، ولقاء جبريل الأمين.

ويحدثنا الرسول ﷺ عن ساعة ذلك اللقاء الفريد فيقول -كما في حديث عائشة الذي أخرجه البخاري- فجاء الملك فقال: اقرأ.

قال: ما أنا بقارئ.

قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني.

فقال: اقرأ.. فقلت: ما أنا بقارئ.

فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني.

فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ.

(١) في رأي بعض المحققين.

فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

ويذهب الرسول ﷺ إلى أهله بالخبر، وهو في تفكير عميق وشعور نفسي غريب، يحاول أن يتفهم حقيقة ما حدث. فتتلقفه يدا زوجه الحانية السيدة خديجة بنت خويلد، وإذا بها -بعد ما سمعت ما قصّه عليها الصادق الأمين- تقول في ثقة كاملة: (أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق).

لقد جمعت هذه السيدة الحكيمة صفات سيدنا محمد ﷺ التي جعلته محل العناية الإلهية والاصطفاء للنبوة.

فصلة الرحم هي الإحسان إلى الأقارب بالمال أو الخدمة أو الزيارة أو السلام.. إلى غير ذلك.

والكلّ -بفتح الكاف- الثقل، ويدخل في حمل الكَلّ الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك، وهو من الكَلال -بالفتح- أي الإعياء..

ومعنى (تكسب المعدوم) أي تعطي المال تبرعًا وتجود به.

وقرى الضيف: هو الطعام الذي يعد له تكريمًا واحترامًا.

والنوائب: جمع نائبة وهي الحادثة، وإنما قالت: (نوائب الحق) لأن النائبة قد تكون في الخير وقد تكون في الشر.

قال الإمام النووي[1]:

(قال العلماء -رضي الله عنهم-: معنى كلام خديجة -رضي الله عنها- أنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل، وذكرت ضروبًا من ذلك.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، ج٢، ص٢٠٣.

وفي هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء.

وفيه مدح الإنسان في وجهه في بعض الأحوال نظرًا لمصلحة.

وفيه تأنيس من حصلت له مخافة من أمر، وتبشيره وذكر أسباب السلامة له.

وفيه أعظم دليل وأبلغه على كمال خديجة ﵂ وجزالة رأيها وقوة نفسها وثبات قلبها وعظم فقهها).

ولا تكتفي السيدة خديجة بذلك، بل تحاول أن تستوثق، فتذهب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وهو من الحنفاء الذين التمسوا الدين الصحيح بعيدًا عن وثنية المشركين، وله علم بالكتب المقدسة لدى النصارى.

ويسمع ورقة حديثها، ويسمع من الصادق الأمين ما حدث له، فيقطع بالنبوَّة لمحمد بن عبد الله ﷺ، ويقول: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى.

ثم يلقي إلى الرسول بعبرة التاريخ قائلاً: إن قومك سيكذبونك ويؤذونك، ويخرجونك ويقاتلونك.

فيتعجب الرسول ﷺ ويقول: أَوَمُخْرِجِيَّ هم؟!

فيرد ورقة مؤكدًا السنة الجارية بين الأنبياء وأقوامهم: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عاداه الناس وحاربوه.

ثم يفصح ورقة عن يقينه مما حدث: وإن أدركت ذلك اليوم وطالت بي الحياة نصرتك نصرًا قويًّا.

وفي رواية البخاري:

فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها

جذعًا[1]، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك.!

فقال الرسول ﷺ: أوَمخرجي هم؟!

قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا.

ويشاء الله أن يموت ورقة قبل أن يصدع الرسول ﷺ بالدعوة وقبل أن يتتابع الوحي.

وإلى هنا يظل سيدنا محمد ﷺ يترقب الوحي، ويتشوق لرؤية الملك الذي جاءه ثم فتر عنه بعض الوقت.

وإذا باللقاء يتجدد.. ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه:

فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه رعبًا، فرجعت فقلت: زملوني.. زملوني.. فدثروني.

فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ قبل أن تفرض الصلاة، و(الرجز) هي الأوثان.

ومن هنا قام رسول الله ﷺ يحمل الرسالة وبدأ يبلغ الدعوة.

فكان أول من بادر إلى تصديقه من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، وكان أول من بادر إلى تصديقه من الغلمان عليّ بن أبي طالب، وكان أول من بادر إلى تصديقه من الموالي مولاه زيد بن حارثة. وانطلق نور الله من غار حراء.

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[2].

---

(١) يتمنى أن يكون شابًا فتيًا يتمكن من الدفاع عن الرسول ﷺ ونصرته وهو بالنصب خبر كان مقدرة.

(٢) سورة الصف، الآية ٨ .

من الصفا إلى العقبة

في صحيح مسلم عن عائشة ﵂ قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ على الصفا فقال: «يا فاطمة بنت محمد.. يا صفية بنت عبد المطلب.. يا بني عبد المطلب.. لا أملك لكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم».

وفي رواية عن أبي هريرة ﵁: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾.. دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا، فعَمَّ وخَصَّ فقال:

«يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها[1] ببلالها».

من هذا الموقف نتعلم كيف نبدأ الدعوة.

إنها قدوة النفس والأهل.

صحيح أن الإنسان -ولو كان نبيًّا- لا يملك هداية أحد، ولكنه يستطيع التبليغ والنصح والبيان.

وما أعظم حق الرحم..!!

فهذا هو الرسول ﷺ، وهو في موقف البيان الأول، وهو يبرئ ذمته أمام الله والناس- لا ينسى أن للرحم حقًّا وأن للقربى صلة.

---

(١) بل رحمه: وصلها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «**يا صباحاه**». . !!

فقالوا: من هذا الذي يهتف؟

قالوا: محمد.

فاجتمعوا إليه، فقال:

«**يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد المطلب**».

فاجتمعوا إليه.

فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟!**»

قالوا: ما جربنا عليك كذبًا.

قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**».

فقال أبو لهب: تبًّا لك، أما جمعتنا إلا لهذا. . !!

ثم قام فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. .﴾.

انظر معي إلى براعة الاستهلال، ولباقة العرض، وبلاغة الحوار. وتأمل معي كيف استنطقهم بصدقه وألزمهم بتصديقه.

وإذا كان ظلم ذوى القربى أقسى أنواع الظلم فإن أبا لهب أولى الناس تمثيلاً لهذا الظلم.

فأمام هذا الجمع يتنكر للرحم، وينكر الحق، ويجاهر بالعداء.

وتحدث الروايات أن أبا لهب وزوجه أم جميل تحملا عبء مناهضة الرسالة والرسول ﷺ، وكان أبو لهب يسير خلف المصطفى الكريم ﷺ قائلاً: إنه صابئ كاذب.

ونزل القرآن يتلى على سمع الزمان:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

في صحيح البخاري: أن عروة بن الزبير سأل ابن عمرو بن العاص فقال: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟.

قال: بينما النبي ﷺ يصلي في حِجْر الكعبة إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا.

فأقبل أبو بكر ﷺ حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟!!

هذا نموذج واحد مما فعل بالرسول ﷺ والمؤمنين في صور شتى ضربًا وتجويعًا وبلاءً وفتنة.

ولسنا نرى سببًا يعقل وراء هذه المواقف الطائشة من المشركين والتي فعلوها في صلف بالغ وكبرياء ساخط شديد.

اللهم إلا العناد والحسد.

ولعل رأيًا لأبي جهل بن الحكم يفصح عن هذا المعنى عندما قال[1]:

تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف.

أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء..!!

فمتى ندرك هذا؟!

والله لا نسمع به أبدًا ولا نصدقه.

وفي تعبير آخر:

والله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكني يمنعني شيء.

إن بني قصي قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم.

ثم قالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم.

ثم قالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم.

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن كثير، ج١، ص٥٠٦ و٥٠٧، طبعة دار المعرفة - بيروت.

ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم.

ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا: منا نبي..!!

والله لا أفعل..!!

* * *

بدأ الإسلام غريبًا، وتحمل السابقون في الإسلام البأساء والضراء، وواجهوا مجتمعًا بعقائده وتقاليده مواجهة لا تعرف الخور.

وإذا كان رسول الله ﷺ قد علا صوته من فوق الصفا في أول نداء لقومه.. فإن أبا بكر الصديق كان أول هذه الأمة إيمانًا، وأول داعية بلغ عن الرسول ﷺ، ونصح في سبيل الله، وبذل المال متألفًا لقلوب العباد.

وأول بيت دخله الإسلام بأجمعه هو بيت ياسر وزوجه سمية وولده عمار.. وكان بنو مخزوم يخرجون بهذه الأسرة المسلمة إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، إلى أن أصبحت سمية أول شهيدة في الإسلام.

ومع كآبة المنظر وقسوة الموقف كان صوت بلال بن رباح مرتفعًا بكلمة التوحيد.. أحد.. أحد..

وفي وسط هذا الجو القاتم، والأصنام المعبودة، والطاغوت المستحكم -توقد الآمال الكبار في قلوب المسلمين المستضعفين.. ففي صحيح البخاري أن خباب بن الأرت قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد ببردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟!!

فقعد وهو محمر وجهه فقال: «**لقد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد.. ما دون عظمه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه..!! ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه..!!**

وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عز وجل والذئب على غنمه..!!

ولكنكم تستعجلون».

بدأ نور الله يسرى، وتسامع الناس بمبعث الهادى البشير وتوافد آحاد الناس يتحسسون الطريق، ونلتقي هنا بمواقف شامخة يضيق المقام عن حصرها.. ولنستمع:

ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال:

(لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله ﷺ قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، فاسمع من قوله ثم ائتني.. فانطلق الأخ حتى قدمه وسمع من كلامه ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلامًا ما هو بالشعر.

فقال: ما شفيتني مما أردت.

فتزود وحمل شنة[١] له فيها ماء، حتى قدم مكة، فأتى المسجد، فالتمس رسول الله ﷺ، ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه بعض الليل.

فرآه عليّ فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد.

وظل ذلك اليوم ولا يراه النبي ﷺ حتى أمسى فعاد إلى مضجعه فمر به عليّ، فقال: أما آن للرجل أن يعلم منزله، فأقامه فذهب به معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء.

حتى إذا كان اليوم الثالث فعاد عليّ على مثل ذلك، فأقام معه.

فقال: ألا تحدثني بالذي أقدمك؟!

قال: إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لترشدنني فعلت، ففعل، فأخبره.

قال: فإنه حق وإنه رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني فإني إن رأيت شيئًا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، وإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي.

ففعل فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي ﷺ، ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه.

---

(١) الشنة - فتح الشين: القربة الخلق.

فقال له النبي ﷺ : «**ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري**».

فقال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم.

فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته.

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العباس فأكبّ عليه، فقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار، وأنه طريق تجارتكم إلى الشام؟!.

فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا عليه، فأكبّ العباس عليه).

* * *

توالى توافد الناس على إسلام الوجه والقلب لله رب العالمين، وبدأت مراحل الجهاد النفسي تتعالى نبضاتها، وحميت حرارة الإيمان في قلوب الذين آمنوا.

حتى إن عمر بن الخطاب يوم أسلم قال: فوالذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان.

وأقدمت الدعوة الإسلامية على العبور، فهاجر المسلمون إلى الحبشة عندما أشار الرسول ﷺ إلى ذلك بقوله: «**لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق**».

وحاولت قريش استرجاع المسلمين ليزدادوا بهم تنكيلاً، فأرسلوا إلى النجاشي وفدًا وبعثوا معه هدايا، ولكن النجاشي -بعد أن سمع وجهة نظر الفريقين -قال قولته المشهورة: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة..!!

وأبقى على المسلمين جواره وأمنه وحمايته.

وانتقل المشركون إلى موقف آخر شديد، فحاصروا المسلمين ومن معهم في

شعب بالجبل، وتعاهدوا فيما بينهم على ألاّ يجالسوا بني هاشم -مؤمنهم وكافرهم-ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق، واستحفظوها في جوف الكعبة.

وظلت هذه المقاطعة ثلاث سنين اشتد فيها البلاء على المسلمين، حتى كان يسمع صوت نسائهم من شدة الجوع، وأكل المسلمون خلالها أوراق الأشجار.

في هذه المحنة القاسية تحركت قلوب المشركين، وألقى الله فيها الرحمة، فنادى زهير بن أبي أمية المخزومي: يا أهل مكة، إنا نأكل الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

وبعث الله على صحيفتهم الأرضة فلم تترك اسمًا لله إلا لحسته، وبقي ما فيها من شرك وظلم وقطيعة، وأطلع الله رسوله على الذي صنع بها. فذكر ذلك لعمه أبي طالب، فلم يتوقف في تصديق الخبر، وذهب مسرعًا حتى أتى الكعبة، فحدث قريشًا قائلاً: (لأعطينكم أمرًا فيه نصف، إن ابني أخبرني - ولم يكذبني - أن الله عز وجل بريئ من هذه الصحيفة التي في أيديكم، وأنه محا كل اسم له فيها، وترك فيها غدركم وقطيعتكم. فإن كان ما قال حقًّا، فوالله لا نسلمه إليكم حتى نموت عن آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلاً، دفعناه لكم فقتلتموه أو استحييتموه)[1].

ففتحوا الصحيفة فوجدوها كما أخبر، فخرج بنو هاشم من شعبهم وخالطوا الناس.. وكان خروجهم سنة عشر من البعثة.

* * *

(١) جاء في فتح الباري، ج٧، ص ١٩٢: (وذكر ابن هشام أنهم وجدوا الأرضة قد أكلت جميع ما فيها إلا اسم الله تعالى، وأما ابن إسحق وموسى بن عقبة وعروة فذكروا عكس ذلك أن الأرض لم تدع اسمًا لله تعالى إلا أكلته وبقي ما فيها من الظلم والقطيعة، فالله أعلم).

كان رسول الله ﷺ لا يألوا جهدًا في تبليغ الدعوة، وحاول بشتى الطرق أن يلقى الناس في أماكن تجمعاتهم ومواسم حجهم وأسواق تجارتهم.

وبينما رسول الله ﷺ عند العقبة - لقي رهطًا من الخزرج، أراد الله بهم خيرًا، فعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فأدرك هؤلاء الرهط صدق الرسول ﷺ، وتذكروا أن هذا هو النبي الذي ينتظره أهل الكتاب، لأن اليهود في المدينة كانوا يتوعدون أهلها ويقولون: إن نبيًّا مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم..

فحاول هؤلاء الرهط من الخزرج أن يسبقوا إلى الإسلام ويفوزوا بشرف النصرة لرسول الله ﷺ، فأسلموا ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة.

فلما كان العام المقبل قدم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقيهم الرسول ﷺ عند العقبة، وبايعوه على بيعة النساء وهي(١):

أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف.

وقال لهم ﷺ : **«فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأخذتم بحدِّه في الدنيا فهو كفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب وإن شاء غفر».**

وتسمى هذه البيعة بيعة العقبة الأولى، فلما انصرف القوم بعث الرسول ﷺ معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين.

فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام بتوفيق الله لمصعب الذي كان يصلي بهم ويحسن الدعوة فيهم.

فلما مضى العام وحان موسم الحج عاد مصعب إلى مكة ومعه وفد من

---

(١) يعني على وفق ما نزلت عليه بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية، وهذا من الموافقات القرآنية.

الأنصار المسلمين، وواعدوا رسول الله ﷺ بالعقبة في ليلة من أوسط أيام التشريق.

وحين مضى ثلث الليل خرجوا من رحالهم يتسللون تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعوا في الشعب، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان هما نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو بن عدي.

وبينما هم مجتمعون إذ حضر الرسول ﷺ ومعه عمه العباس، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له.

فتكلم الرسول ﷺ، وتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: **«تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة»**.

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق نبيًّا لنمنعنك مما نمنع منه أُزرنا[١]، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة[٢] ورثناها كابرًا عن كابر.

وقد نوقشت هذه البيعة قبل إتمامها مناقشة موضوعية هادئة، وقلبت فيها الأمور على كافة وجوهها، حتى قال أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم: رويدًا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم وتعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله.

يريد أسعد أن يستوثق من قومه ويضعهم أمام مسئولياتهم، وساءلهم سؤالاً

(١) أزر كحُمُر: جمع إزار، ويكنى به عن المرأة.

(٢) الحلقة: السلاح.

مؤداه: هل أنتم على استعداد لتحمل البأساء في سبيل حماية الرسول ﷺ؟!

فقالوا: أمط عنا يا أسعد -أي ابعد عنا- فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبدًا.

وكما استوثق أسعد من قومه فقد استوثق بعضهم من رسول الله ﷺ، فقام أبو الهيثم بن التيهان وقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها -يعني اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟!!

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أُحارب من حاربتم، وأُسالم من سالمتم**».

والمعنى: أن طالب دمكم طالب دمي، ومن أهدر دمكم فقد أهدر دمي، لاستحكام الألفة بيننا.

ثم طلب الرسول ﷺ إليهم أن يخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا يكونون مسئولين عن قومهم، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

وتسمى هذه البيعة بيعة العقبة الثانية وبيعة الحرب، لأنه تلاها هجرة المسلمين إلى المدينة، وبداية العهد المدني، وتأسيس الدولة الإسلامية والإذن للمسلمين بالقتال، ردًا للظلم ودفعًا للعدوان وتأمينًا للعقيدة.

* * *

قبلة الصلاة

الصلاة فريضة مكتوبة في رسالات الله إلى البشر، دعا إليها الأنبياء، وأوصى الله بها عباده على مدى الأجيال.

فسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام جعل الغاية من سكنى إسماعيل عليه السلام بجوار البيت الحرام هو إقامة الصلاة فقال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾(١).

وختم دعاءه العام الشامل بالتأكيد على تلك الشعيرة فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾(٢).

وأوحى الله بها إلى موسى عليه السلام فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾(٣).

وأخذ الله عليها الميثاق من بني إسرائيل فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾(٤).

وتكلم عيسى عليه السلام في المهد مؤكدًا تلك الفريضة فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾(٥).

وقد فرضت الصلاة على المسلمين ليلة الإسراء والمعراج خمسًا في الفعل وخمسين في الأجر والثواب، وكان المسلمون يصلون في مبدأ الدعوة الإسلامية في مكة صلاة بالغداة وصلاة بالعشي، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾(٦).

وفي غداة الليلة المباركة التي وقع فيها الإسراء والمعراج بدأت تجربة عملية لتحديد مواقيت الصلاة بدءًا ونهاية..

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٧ (٢) سورة إبراهيم، الآية ٤٠

(٣) سورة يونس، الآية ٨٧ (٤) سورة المائدة، الآية ١٢

(٥) سورة مريم، الآية ٣١ (٦) سورة غافر، الآية ٥٥

ففي صحيح مسلم عن أبي مسعود ﷺ قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نزل جبريل عليه السلام فأمني فصليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه» يحسب بأصابعه خمس صلوات).

وثبت في الحديث في سنن أبي داود والترمذي وغيرهما في رواية ابن عباس وغيره في إمامة جبريل أنه صلى الصلوات الخمس مرتين في يومين، فصلى الخمس في اليوم الأول في أول الوقت وفي اليوم الثاني في آخر وقت الاختيار..

ونص الحديث كما رواه الترمذي عن ابن عباس:

«أمَّني جبريل عليه السلام عند البيت مرتين، فصلى الظهر في الأولى منها حين كان الفيء مثل الشراك، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شيء مثله، ثم صلى المغرب حين وجبت الشمس وأفطر الصائم، ثم صلى العشاء حين غاب الشفق، ثم صلى الفجر حين برق الفجر وحرم الطعام على الصائم.

وصلى المرة الثانية الظهر حين كان ظل كل شيء مثله لوقت العصر بالأمس، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شيء مثليه، ثم صلى المغرب لوقته الأول، ثم صلى العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل، ثم صلى الصبح حين أسفرت الأرض.

ثم التفت إليّ جبريل فقال: يا محمد، هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت فيما بين هذين الوقتين».

وبمطالعة شرح هذا الحديث نلتقط هذه العبارات[1].

- في رواية في الأم للشافعي: عند باب الكعبة.

- في رواية لابن إسحق: فأمر فصيح بأصحابه، الصلاة جامعة، فاجتمعوا، فصلى به جبريل، وصلى النبي ﷺ بالناس..

---

(١) تحفة الأحوذي - شرح جامع الترمذي، ج١ ، ص ٤٦٤ - تحقيق الدكتور عبد الوهاب عبد اللطيف.

- وقال ابن الأثير: قدره ههنا ليس على معنى التحديد، ولكن زوال الشمس لا يبين إلا بأقل ما يرى من الظل، وكان حينئذ بمكة هذا القدر.

والظل يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، وإنما يتبين ذلك في مثل مكة من البلاد التي يقل فيها الظل، فإذا كان طول النهار واستوت الشمس فوق الكعبة لم ير بشيء من جوانبها ظل.

فكل بلد يكون أقرب إلى خط الاستواء ومعدل النهار يكون الظل فيه أقصر، وكل ما بعد عنها إلى جهة الشمال يكون الظل أطول.

- قوله: «**هذا وقت الأنبياء من قبلك**».

قال ابن العربي في عارضة الأحوذي: ظاهره يوهم أن هذه الصلوات في هذه الأوقات كانت مشروعة لمن قبلهم من الأنبياء، وليس كذلك، وإنما معناه أن هذا وقتك المشروع لك، يعني الوقت الموسع المحدود الطرفين الأول والآخر.

وقوله: «**وقت الأنبياء من قبلك**» يعني ومثله وقت الأنبياء قبلك، أي صلاتهم كانت واسعة الوقت وذات طرفين، وإلا فلم تكن هذه الصلوات على هذا الميقات إلا لهذه الأمة خاصة. اهـ.

واختلف العلماء في قبلة المسلمين في الصلاة أثناء العهد المكي علي قولين:

الأول: إلى بيت المقدس واستمرت بعد الهجرة إلى أن صرفهم الله إلى الكعبة.

الثاني: إلى الكعبة ثم لما وقعت الهجرة صلى المسلمون إلى بيت المقدس.

وأيًّاما كان فإن المسلمين قد استقبلوا بيت المقدس في أوائل العهد المدني ستة عشر شهراً أو سبعة عشر حتى نزلت الآية الكريمة:

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ[١]﴾[٢].

وهذا الاتجاه إلى بيت المقدس كان تعبيرًا عن معاني سامية منها:

١- محاولة البعد عن شائبة الوثنية، فالكعبة حينئذ كانت محاطة بأصنام تعد بالمئات، وأيضًا المنع من الاشتراك مع المشركين في الاتجاه.

٢- تهدئة الصراع النفسي لدى المسلمين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله.

٣- تأليف اليهود وجذبهم للدين الجديد بتعظيم بيت المقدس الذي بارك الله حوله، وبيان أن رسالات الله تلتقي في أصولها العامة.

وتلك القضية -قضية تأليف اليهود- اهتم الرسول الكريم بها، ومن مظاهرها الأخرى المعاهدة التي وقعها مع اليهود والتي تضمنت حسن الجوار والتعاون التام والدفاع المشترك، وكذلك صيام عاشوراء، وأمر المسلمين به وقوله ﷺ: **«نحن أحق بموسى منكم»**.

ولكن إذا ما أحسّ المسلمون بوحدة صفوفهم وقوة إيمانهم واتخذوا موقف الدفاع وأُذن لهم بالقتال، فليتجهوا -إذن- إلى البيت الحرام بمكة ليحيا في وجدانهم حتى يطهروه من رجس الوثنية، ثم إن البيت هو بناء إبراهيم الجد الأكبر للعرب واليهود معًا، وهو أول بيت وضع للناس..

ولذا كان الرسول ﷺ يكثر الدعاء إلى الله تعالى أن يجعل قبلته إلى البيت الحرام بمكة.

وهنا نزل قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٤٤

(٢) قال أبو حاتم البستي -كما نقل القرطبي-: صلى المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرًا وثلاثة أيام سواء، وذلك أن قدوم الرسول المدينة كان يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول وأمره الله عز وجل باستقبال الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان.

وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[١].

قال الإمام النووي[٢]: واختلف أصحابنا وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى في استقبال بيت المقدس هل كان ثابتًا بالقرآن أم باجتهاد النبي ﷺ؟

فحكى الماوردي في الحاوي وجهين في ذلك لأصحابنا، قال القاضي عياض رحمه الله تعالى، الذي ذهب إليه أكثر العلماء أنه كان بسنة لا بقرآن، فعلى هذا يكون فيه دليل لقول من قال إن القرآن ينسخ السنة، وهو قول أكثر الأصوليين المتأخرين، وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله تعالى.

والقول الثاني له، وبه قال طائفة، لا يجوز لأن السنة مبينة للكتاب فكيف ينسخها، وهؤلاء يقولون لم يكن استقبال بيت المقدس بسنة، بل كان بوحي، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا...﴾ الآية.

وقد تعددت الروايات في الصلاة الأولى التي وقعت للكعبة بعد الهجرة، ويسوق الإمام القرطبي منها[٣]:

- في رواية مالك: أنها صلاة الصبح.
- وقيل: نزل ذلك على النبي ﷺ في مسجد بني سلمة وهو في صلاة الظهر بعد ركعتين منها فتحول في الصلاة، فسمي ذلك المسجد مسجد القبلتين.
- وقيل: إن الآية نزلت في غير صلاة وهو الأكثر، وكانت أول صلاة إلى الكعبة صلاة العصر، وثبت ذلك في صحيح البخاري.

ولم يبلغ هذا الخبر إلى بعض المسلمين إلا في فجر اليوم التالي.

وجاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذا جاءهم آتٍ فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٤٤ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، ج٥، ص٩.

(٣) أحكام القرآن، ج٢، ص ١٤٨.

أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة.

هذا وقد أحدث تحويل المسلمين إلى الكعبة في الصلاة حملة تشكيك تولى كبرها السفهاء من أهل الكتاب وقالوا: أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس، إن كانت على هدى فقد تحولتم عنه، وإن كانت على ضلالة فقد عبدتم الله بها مدة؟! وتساءل البعض عن حكم من مات قبل أن يدرك تحويل القبلة..

هنا نزل القرآن العظيم كاشفًا خفايا صدور المنافقين واليهود، ومصححًا لمفهوم العبادة، فقال:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

فالعبادة إنما هي الامتثال الضارع لأمر الله الحكيم الخبير، وطالما امتثل الإنسان أمر خالقه وبارئه فهو في محل الرضا منه سبحانه.

فمن صلى إلى القبلة الأولى ومات قبل أن يدرك القبلة الثانية فقد قبل الله صلاته، لأنه امتثل وأطاع.

وليس الهدى في اتباع موطن خاص أو التوجه إلى مكان معين وإنما الهدى هدى الله، والكون كله خاضع لمشيئته وسلطانه..

* * *

(١) سورة البقرة، الآيتان ١٤٢و ١٤٣ .

الفتح المبين

أذن الله تعالى للمسلمين بالقتال، ونزل القرآن يتلى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾[1].

فخاض المسلمون معارك تجلت فيها عبقرية العقل الإسلامي وتوجتها عناية الله بالنصر المؤزر؛ ووقعت غزوات بدر الكبرى، وأُحد، والخندق، وتم جلاء اليهود عن المدينة؛ فاستقرت الدولة الإسلامية، وتطلع المسلمون إلى أم القرى، وازداد حنينهم إليها، فوقع الفتح المبين.

وفي القرآن العظيم سورة تسمى سورة الفتح، نزلت في ذي القعدة من العام السادس للهجرة، وقال عنها الرسول ﷺ -كما في صحيح البخاري-: «**لقد أُنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس**».

وفي رواية لمسلم: «**هي أحب إليّ من الدنيا جميعًا**».

وهذه السورة تتحدث عن الفتح في نتائجه وأحداثه ومقدماته.

(أ) نتائج الفتح:

النتائج في أوئل السورة سيقت على وجه التعجيل بالمسرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ إلى قوله جل شأنه: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[2].

والفتح هو النصر.

وأصل الفتح: إزالة الأغلاق، وفتح البلد: الظفر به، لأنه منغلق ما لم

(١) سورة الحج، الآيتان ٣٩ و ٤٠.

(٢) سورة الفتح، الآيات ١-٥.

يظفـر به، فإذا ظفـر به وتمكن القـائد منه فقـد فـتح، سواء كـان ذلك عنوة أم صلحًا، بحرب أم بغير حرب.

والفتح المبين هو صلح الحديبية على أرجح الأقوال.

وقد أسند الفتح إلى الله تعالى في قوله ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ تعظيمًا لشأن الصلح، وإظهاراً لمكانة الرسول ﷺ .

وقد اشتملت وثيقة الصلح هذه على بنود أساسية هي:

- وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

- من أتى محمـدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جـاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه.

- من أحب أن يدخل في عقـد محمـد وعهده دخل فـيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

- أن يرجع المسلمـون عامـهم هذا فـلا يدخلون مكة، وأنه إذا كان العـام القابل خـرجت قريش عنها، ودخلهـا المسلمون وأقامـوا بها ثلاثًا معـهم سلاح الراكب، والسيوف في القُرُب.

وقد وقعت عند إرادة هذا الصلح مواقف تجدر الإشارة إليها:

أولاً : دعا رسـول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب لكتـابة وثيقـة الصلح، فقال: اكتب «**بسم الله الرحمن الرحيم**».

فـقال مندوب قـريش سـهيل بن عـمـرو: لا أعرف هذا، ولكن اكـتب: باسمك اللهم.

فقال الرسول الكريم ﷺ : «**اكتب باسمك اللهم**» فكتبها.

ثم قال: «**اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو**».

فقـال سهيل: لو شهـدت أنك رسول الله لم أُقاتلك ولكن اكـتب اسمك واسم أبيك.

فقال رسول الله ﷺ : «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل ابن عمرو».

وهكذا كانت حكمة رسول الله ﷺ ، وعظمة تفكيره وإلهام الله له، فإن هذه الأمور لا يترتب عليها ضرر مع أن فيها مصلحة مرجوة.

فالبسملة وباسمك اللهم بمعنى واحد.

وكذلك محمد بن عبد الله هو نفسه رسول الله ﷺ ، فترك الوصف هنا لا يضير، وليس في الوثيقة ما يتنافى مع العقيدة أو ينفيها.

ثانيًا: ظن بعض الناس ومنهم عمر بن الخطاب أن في شروط الصلح إجحافًا بالمسلمين.

وجاء عمر إلى الرسول ﷺ فقال - كما في صحيح مسلم -: يا رسول الله، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟!

قال: «بلى».

قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟!

قال: «بلى».

قال عمر: فلم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟!

فقال ﷺ : «يا ابن الخطاب، إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدًا».

فانطلق عمر فلم يصبر متغيظًا، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟

قال: بلى.

قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟!

قال: بلى.

قال عمر: فعلام نعطى الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟

فقال أبو بكر الصديق: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله ولن يضيعه[1].

وهذا موقف عظيم من حكمة رسول الله ﷺ، وقد قال ﷺ توضيحًا لشرط رد من جاء مسلمًا إلى المشركين: إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

وقد بين العلماء أهمية هذا الصلح وأظهروا آثاره في الدعوة والإسلام فحكى ابن هشام عن الزهري قال: فما فتح في الإسلام فتح كان أعظم منه، وإنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضًا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تلك السنين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

قال ابن هشام: (والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف).

ولعل هذا هو ما يشير إليه بعض كبار الصحابة عندما ذهبوا إلى هذا الرأي، فقد ورد في الصحيح أن ابن مسعود قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

وقال جابر: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية.

وقال البراء: تعدون الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية.

* * *

نعود إلى صدر سورة الفتح فنجد قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

وقد يتوهم منه البعض أن الفتح المبين كان علة لمغفرة ذنوب الرسول ﷺ.

---

(١) كان عمر يقول: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمته حتى رجوت أن يكون خيرًا.

لكن البيان القرآني والتذوق اللغوي يؤكد أن القضية متعلقة ببيان مقام رسول الله ﷺ ورفعة شأنه، فقد ترتب على الفتح أمور مجتمعة هي مغفرة الذنوب وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر المؤزر:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

فليست المسألة متعلقة بذنب يغفر، بل هي مرتبطة بالمقام السامي الرفيع لسيدنا رسول الله ﷺ حيث طهره الله تطهيرًا وعصمه العصمة الكاملة، ومنحه التأييد المطلق..

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾[1].

هو إشارة إلى ما صاحب كتابة وثيقة الصلح من تشكك البعض في جدواها، أو قصور البعض عن تصور آفاقها البعيدة، فجعل الله الطمأنينة في قلوب الصحابة رضوان الله عليهم، فاستجابوا لله، وللرسول وازدادوا إيمانًا بحكمة التشريع مقرونًا بإيمانهم بقضية التوحيد والعدل الإلهي فثبتت لهم الحسنى وزيادة..

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[2].

بيان لقدرة الله سبحانه وحكمته البالغة، فالله غالب على أمره، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولكن الله جل شأنه يدبر الأمر -كما يريد- حربًا أو سلمًا، عنوة أو صلحًا.. فهو العليم ببواطن الأمور، الحكيم في التدبير والتقدير.

* * *

(ب) أحداث الفتح:

أحداث الفتح تحدثت عنها الآيات في قوله سبحانه:

(١، ٢) سورة الفتح آية ٤.

عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾الآيات[١].

وصل رسول الله ﷺ إلى الحديبية، وهي اسم بئر بينها وبين مكة مرحلة[٢]، وبينها وبين المدينة تسع مراحل، وهو يريد الكعبة المشرفة لأداء العمرة، لا يريد حربًا، وساق معه الهدي وقال: «**لا تدعوني قريش اليوم إلي خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها**».

ما أحلمك يا سيدي يا رسول الله! وما أعظم عفوك!

قريش التي آذتك وأخرجتك وظاهرت على عداوتك وقاتلتك في بدر وأُحد والخندق.. ومع ذلك تحفظ الجوار وتصل الرحم وتحسن إلى من أساء إليك.

ولما علمت قريش بمقدم رسول الله ﷺ نالها الفزع الأكبر، وأجمعوا رأيهم، وجمعوا قوتهم لمواجهة المسلمين، وتعاهدوا أن لا يدخلها الرسول ﷺ عليهم أبدًا.

وتوالت المراسلات بين قريش والمسلمين، وفي كل مرة يؤكد الرسول ﷺ أنه لم يأت لقتال، وإنما جاء زائرًا للبيت الحرام، معظمًا له.

وحاولت وفود قريش أن تتعرّف على قوة المسلمين ومدى تمسكهم وحقيقة نواياهم.. حتى قال عروة بن مسعود الثقفي لقريش بعد جولة من المفاوضات مع الرسول الكريم:

يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكًا في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء أبدًا.. فروا رأيكم.

ولما طالت المفاوضات آثر الرسول ﷺ أن يبعث إلى مكة مندوبًا عنه يشرح لهم حقيقة الموقف، فاختار عثمان بن عفان، وبعثه إلى أبي سفيان وأشراف مكة يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائرًا لهذا البيت، معظمًا لحرمته، فمن غير المعقول أن يُسمح لسائر العرب ويُمنع الرسول ﷺ والمسلمون.

---

(١) سورة الفتح: الآيات ١٨و١٩.　　(٢) المرحلة: أربعون كيلو مترًا تقريبًا.

ولما فرغ عثمان من تبليغ رسالته قالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف.

فقال عثمان رضي الله عنه: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

واحتبست قريش عثمان بعض الوقت، فنقل الخبر إلى المسلمين على أن عثمان قتل، عندئذ دعا الرسول ﷺ الناس إلى البيعة على الثبات وعدم الفرار حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولا.

فأقبل المسلمون بقلوب ملؤها الإيمان واليقين، وبايعوه تحت الشجرة بيعة الرضوان.

وما كاد الأمر يصل مسامع قريش وأن المسلمين قد استعدوا لخوض المعركة، حتى أطلقوا سراح عثمان رضي الله عنه، وبعثوا سهيل بن عمرو يعرض للصلح والمهادنة.

والشجرة كانت سمرة، وهي من شجر الطلح الكبير، والمشهور أن الناس كانوا يأتونها فيصلون عندها، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو خليفة للمسلمين، فأمر بقطعها خشية الفتنة بها لقرب العهد بالجاهلية.

وفي الصحيحين من حديث طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجًا فمررت بقوم يصلون، قلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان.

فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال: حدثني أبي أنه كان ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما كان من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها.

ثم قال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأيكم أعلم؟!

وإنكار سعيد بن المسيب هنا معرفة مكان الشجرة لا يدل على عدم معرفتها أصلاً أو معرفة بعض الصحابة لمكانها.

ففي صحيح البخاري أن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال في آخر حياته: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: «**أنتم خير أهل الأرض**» وكنا ألفًا وأربعمائة، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة.

نعود إلى الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ..﴾.

والرضا يقابل السخط.

والفعل -رضي- يعدى بعن والباء وقد يعدى بنفسه، تقول: رضيت عنك، ورضيت بك، ورضيت عملك أو رضيتك.

وتقييد الرضا بزمان المبايعة في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ يشعر بعليتها له، أي أن البيعة هي سبب الرضا، والتعبير بالمضارع ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ لاستحضار صور المبايعة أمام المسلمين على مدى الأجيال.

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من إخلاص العقيدة وصدق اليقين وكمال الولاء لله ورسوله ﷺ.

والفتح القريب هو صلح الحديبية وما ترتب عليه من آثار الخير والعزة للإسلام والمسلمين.

قال الإمام النووي(١): (وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين، ولا تتظاهر عندهم أمور النبي ﷺ كما هي ولا يخلون بمن يعلمهم بها مفصلة.

فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين وجاءوا إلى المدينة وذهب المسلمون إلى مكة، وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه، وسمعوا منهم أحوال النبي ﷺ مفصلة بجزئياتها، ومعجزاته الظاهرة، وأعلام نبوّته المتظاهرة، وحسن سيرته، وجميل طريقته، وعاينوا بأنفسهم كثيراً من ذلك).

ويرى بعض العلماء أن الفتح القريب هو فتح خيبر، وكان عقب انصرافهم من الحديبية، وقيل هو فتح مكة والقرب نسبي، والأظهر أنه هو نفس صلح الحديبية، فقد تلاه فتح خيبر ومكة، واستقر الأمر عقيبه للإسلام والمسلمين، وتوالت عليهم الغنائم وفتحت عليهم أقطارها.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، ج١٢، ص١٤٠.

ثم توالت الآيات مبشرات لهؤلاء المجاهدين، فالتفتت إليهم من الغيبة إلى الخطاب في قوله سبحانه: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾.

وذلك لتشريفهم ورفعة قدرهم.

وبينت عناية الله بأوليائه، وقانونه الذي لا يتخلف في نصرتهم فقال جل شأنه: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [1].

وأخيرًا سجلت الآيات فضلاً لهؤلاء المجاهدين أصحاب الشجرة، ومنحتهم وسامًا رفيعًا دونه كل الأوسمة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [2].

ولذا قال ﷺ لأصحاب الشجرة: «أنتم خير أهل الأرض».

* * *

(جـ) مقدمات الفتح:

أشارت السورة الكريمة إلى مقدمات الفتح في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [3].

كان الرسول ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تفسر هذا العام.

---

(١) سورة الفتح، الآية ٢٣ .

(٢) سورة الفتح، الآية ٢٦ .

(٣) سورة الفتح، الآية ٢٧ .

ولما وقع ما وقع من صلح الحديبية، ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، قلق بعض الصحابة، وتساءل عمر بن الخطاب، وقال للرسول الكريم ﷺ : ألم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟!

قال ﷺ : «**بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟!**»

قال عمر: لا.

قال ﷺ : «**فإنك آتيه ومطوف به..!!**»

وفعلاً، ففي العام السابع وفي ذي القعدة أدى الرسول ﷺ والمسلمون عمرة القضاء، ودخلوا مكة معتمرين ملبين، ووقف المشركون يشهدون هذا الموقف الرائع.

فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع[1] بردائه وأخرج عضده اليمنى، ثم قال للمسلمين: «**رحم الله امرءا أراهم اليوم من نفسه قوة**».

وذلك أن قريشًا تحدثت أن محمدًا وأصحابه في عسرة وجهد ومشقة، وأصابتهم حمى يثرب.

وقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ**﴾.

الصدق -كما قال الراغب- يكون بالقول ويكون بالفعل، وما في الآية صدق بالفعل وهو التحقيق أي حقق الله رؤيا رسوله ﷺ .

والرؤيا على وزن فُعلى بلا تنوين، من رأى في منامه، وجمعها رؤًى بالتنوين.

أما الرؤية فتكون بالعين، تقول: رأيت الشجرة، فتتعدى إلى مفعول واحد، فإن كانت بمعنى العلم فتتعدى إلى مفعولين، تقول: رأيت محمدًا شجاعًا.

---

(١) أي أدخل بعضه تحت عضده اليمنى وجعل طرفه على منكبه الأيسر.

وليكن معلومًا أن رؤيا الأنبياء وحي، وثبت في الصحيح أن أول ما بدئ به الوحي لرسول الله ﷺ هو الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

وقد تتحقق الرؤيا كما رآها وقد تؤول. وجاء في صحيح مسلم أن الرسول ﷺ قال: «**بينما أنا نائم أُتيت خزائن الأرض، فوضع في يدي أسوران من ذهب، فكبرا عليَّ، وأهمَّاني، فأوحى إلي أن انفخهما، فنفختهما فذهبا، فأوَّلتهما الكذابين اللذين أنا بينهما، صاحب صنعاء وصاحب اليمامة**».

والمعنى أن الرسول الكريم ﷺ أول سواري الذهب اللذين طارا من يديه بالعنسي متنبئ صنعاء، ومسيلمة متنبئ اليمامة، وأن هذين الشخصين الكذابين سينمحق شأنهما ويضمحل أمرهما..

وقد وقع ذلك فهو من خوارق العادات لسيدنا رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق -كما قال الزمخشري[1]- بصدق أي صدقه فيما رأى وفي كونه وحصوله صدقًا متلبسًا بالحق، أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة، وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن المخلص وبين من في قلبه مرض.

ويجوز أن يتعلق بالرؤيا حالاً منها، أي صدقه الرؤيا متلبسًا بالحق على معنى أنها لم تكن من أضغاث الأحلام.

ويجوز أن يكون بالحق قسمًا إما بالحق الذي هو نقيض الباطل، أو بالحق الذي هو من أسمائه الحسنى.

﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ جوابه، وعلى الأول هو جواب قسم محذوف.

ومن هنا يجوز أن تقف على قوله تعالى ﴿الرُّؤْيَا﴾ وتقول: لقد صدق الله

---

(١) الكشاف، ج٣، ص ٥٤٩.

رسوله الرؤيا، ثم تقول: بالحق لتدخلن المسجد الحرام.

والمسجد الحرام: هو الكعبة المشرفة.

والحرام: هو ما لا يحل انتهاكه، فالله تعالى قد عظم البيت وشرفه وجعله حرمًا آمنًا ومثابة للناس.

وقوله جل شأنه ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ تعليق بالمشيئة لتعليم العباد، كما قيل استثنى الله فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون، قال العلماء: وفيه تعريض بأن وقوع الدخول من مشيئة الله تعالى لا من قوتهم وتدبيرهم.

وقوله سبحانه: ﴿آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ : ثلاثة أحوال، إلا أن قوله: ﴿آمِنِينَ﴾ حال مقارنة للدخول.

وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حال مقدرة، لأن الدخول لا يكون حال الحلق والتقصير، بل في حال الإحرام، ثم يأتي بعد ذلك الحلق والتقصير.

والمراد من ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ أن البعض محلق والآخر مقصر، فالحلق والتقصير لا يجتمعان، فنسب للكل ما هو للجزء.

والفرق بين قوله: ﴿آمِنِينَ﴾ وقوله ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أن الأول لبيان الأمن وقت الدخول، والثاني لبيان الأمن بعد تمام النسك، وهو وعد بأن يمنحهم الله الأمن والأمان في مستقبل أيامهم، وصيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار..

وفي تقديم ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ على ﴿مُقَصِّرِينَ﴾ بيان لفضيلة الحلق وأنه أكثر ثوابًا بالنسبة للرجال.

وقد أخرج الشيخان أن الرسول ﷺ قال: **«اللهم اغفر للمحلقين»** قالوا: يا رسول الله، والمقصرين.

قال: **«اللهم اغفر للمحلقين»** ثلاثًا.

قالوا: يا رسول الله والمقصرين، قال: **«والمقصرين»**.

أما النساء فقد أخرج أبو داود والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس على النساء حلق، وإنما على النساء التقصير**».

وقوله سبحانه: ﴿**فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا**﴾.

أي من الحكمة والمصلحة والنفع العام للإسلام والمسلمين يوم صدوكم عن دخول مكة عام الحديبية.

وقوله جل شأنه: ﴿**فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾.

أي جعل من قبل دخولكم الذي وعدتم به في الرؤيا فتحًا قريبًا هو صلح الحديبية، فلقد كان نصرًا مبينًا ترتبت عليه آثار عظمى جليلة، وسجله الوحي الشريف قرآنًا يتلى على مدى الزمن.

* * *

(د) على هامش الفتح:

من خلال نتائج الفتح وأحداثه ومقدماته نلمح مواقف تستحق الإشادة، وتجدر بالتنبيه، وينبغي أن نقف أمامها نتأمل ونعي.

وهي ليست من صميم الفتح، ولكنها صاحبته، والأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ والذين معه تحتاج إلى مثل تلك الإشارات اللطيفة.

* * *

التفاؤل:

لما جاء سهيل بن عمرو ليفاوض رسول الله ﷺ، قال الرسول لأصحابه: «**لقد سهل لكم من أمركم..**».

وهكذا كان رسول الله ﷺ دائمًا يحب الفأل الحسن، لأنه حسن ظن بالله، ورجاء في عطائه وجوده.

أما التشاؤم فهو منهي عنه، لأنه سوء ظن بالله، وتوقع للبلاء، مما يتنافى

مع نفسية المؤمن الواثق بعدالة الله وحكمته، والراضي بحكم الله وقضائه.

وفي الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل، قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة**».

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «**أحسنها الفأل ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك**».

والتطير والطيرة من أعمال الجاهلية، كانوا يطلقون الطير والظباء وغيرهما، فإذا ذهب يمنة تيمنوا به، وإن ذهب يسرة تشاءموا به، فنفاه الشرع وأبطله، ونهى عنه وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضرّ.

* * *

الأسباب والمسببات:

في الصحيح عن زيد بن خالد قال: (صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**»

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، ومن قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب**»).

النجوم والكواكب لا علاقة لها بمصائر الناس وسعادتهم أو شقائهم، وليس لها تأثير ذاتي في مصالح العباد، وإنما الأمر كله لله رب العالمين.

وقد وضع سبحانه للكون نواميس وسننًا، فهي جارية بمشيئته وسلطانه

وقهره.. وارتباط الأسباب بالمسببات ارتباط قائم على الإرادة الإلهية، ولو شاء غير ذلك لكان..

فالمسلم يعتقد أن الكون كله خاضع لقدرة الله، ولا يعجز الله شيء في الأرض ولا في السماء..

وعلم الفلك والنجوم وسائر ما يتعلق بالطقس والمناخ والأحوال الجوية - يُتعلم من باب الانتفاع بنعم الله، ومن باب معرفة التسخير الذي هيأه الله للإنسان، ومن باب التفكير في آيات الآفاق..

قال تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[1].

وقال جل شأنه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3].

* * *

مشورة المرأة:

لما انتهت المشاورات، وكتبت وثيقة الصلح، قال رسول الله ﷺ لأصحابة: «**قوموا فانحروا ثم احلقوا**»، أي أمرهم أن يتحللوا من العمرة التي قصدوا إليها فصدوا عنها.

قال الراوي: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس.

(١) سورة النحل، الآية ١٦ .

(٢) سورة الأنعام، الآية ٩٧ .

(٣) سورة يس الآيات ٣٧ - ٤٠ .

فقـالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك. اخرج ثـم لا تكلم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك.

فـخرج فلم يكلم أحـدًا منهم حـتى فعل ذلك، نـحر بدنه ودعـا حالقـه فحلقـه، فلما رأوا ذلك قـاموا فنحـروا وجعل بعـضهم يحلق بعـضًا حـتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا. . ».

وهكذا كانت مشورة المرأة في هذا الوقت العصيب مشورة ناجحة تدل على عمق تفكير السيدة أم سلمة رضي الله عنها، وعلى سلامة وعـيها وحسها المرهف وخبرتها في التعامل مع الناس.

فالإسلام يحـترم المرأة في شخصهـا ورأيها ومالها وكل ما يتـعلق بشأنها، فالنساء شقائق الرجال، والمرأة المؤمنة هي اللبنة الأساسية لبناء المجتمع المؤمن. .

وشعار المرأة هو أدب النفس، وعفة السلوك، ووقـار الزي، ومراقبة حدود الله. .

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

* * *

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٥.

فتح مكة

نقضت قريش عهدها الذي واثقت عليه رسول الله ﷺ في صلح الحديبية، واعتدت على قبيلة خزاعة التي دخلت في حلف المسلمين.

فأمر الرسول ﷺ أصحابه بالتجهيز للغزو، وأفشى بين الناس أنه يريد خيبر، وأسر إلى بعض أصحابه بحقيقة الموقف وهو أنه يريد فتح مكة وتطهير الكعبة، ثم اتجه بالدعاء الضارع إلى الله تعالى قائلاً:

«اللهم عمّ عليهم خبرنا».

فالحرب خدعة، وإن أسرار الدولة وقضاياها المصيرية لا يمكن أن تكون مجالاً للقيل والقال، أو أن تتخذ حديثًا للتندر به في الأماكن العامة.

ونقتصر الحديث عن هذا الفتح العظيم في مواقف خاصة للعبرة والتاريخ..

* * *

(أ) موقف لحاطب:

خلال فترة الإعداد للفتح عمد رجل من المسلمين يسمى حاطب بن أبي بلتعة، وكتب رسالة إلى أهل مكة يعلمهم فيها بما عزم عليه الرسول القائد ﷺ من غزوهم وتطهير الكعبة من رجسهم، وحمَّل الرسالة امرأة من قريش كانت في المدينة، وجعل لها جعلاً على أن تبلغها قريشًا، فخرجت المرأة قاصدة مكة.

وما كان الله ليخذل نبيه ﷺ، فنزل الوحي الأمين ليطلع المصطفى ﷺ على ما فعله حاطب، فبعث الرسول ﷺ جماعة من فُرسان المسلمين، على رأسهم عليّ بن أبي طالب، وطلحة، والزبير بن العوام، وأمرهم أن يلحقوا بالمرأة وينتزعوا منها الرسالة، فأدركوا المرأة في الطريق واستنزلوها والتمسوا الكتاب في

رحلها، فلم يجدوا شيئًا، فقال لها عليّ بن أبي طالب: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا ولتخرجنّ لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك!.

فلما رأت المرأة الجِد منه قالت: أعرض، فأعرض، فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه.

فلما وصل الكتاب إلى رسول الله ﷺ استدعى حاطبًا وسأله عما دعاه إلى إفشاء أسرار المسلمين.

ووقف الرجل يدافع عن نفسه قائلاً: لا تعجل عليّ، إني كنت امرءا ملصقًا في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي.

وما فعلت ذلك كفرًا، ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام، وقد علمت أن الله تعالى ينزل عليهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئًا.

نحن هنا أمام رجل زلت به قدمه، وأخطأ الوسيلة الصحيحة التي كان يمكن أن يحمي بها أهله المقيمين تحت جبروت الشرك والوثنية، وهو لم يفعل هذا مكيدة للمسلمين أو محاولة لكسر شوكتهم فهو يقول: وقد علمت أن الله تعالى ينزل عليهم بأسه وأن كتابي لا يغني عنهم شيئًا.

عندئذ صدقه الرسول ﷺ، وقبل عذره، ولكن عمر بن الخطاب -كعادته في الغيرة- قال: دعني أضرب عنق هذا المنافق.

فقال له الرسول ﷺ -كعادته في الصفح والحكمة-: **«إن الرجل صدقكم.. إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم»**.

لقد التمس الرسول الكريم ﷺ عذرًا للرجل، وقدر له سابق جهاده مع المسلمين.

هنا نزل الوحي بصدر سورة الممتحنة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ الآيات.

وهذا تهديد ووعيد لكل من يصانع المحاربين لله ولرسوله وللمؤمنين، ويتخذهم أولياء ويصطفيهم أخلاء.

وهكذا نتعلم من هذه الواقعة أن القضايا الخطيرة في حاجة إلى خطة محكمة، وأن الخطة في حاجة إلى سرية تامة حتى تظل في مسارها دون عقبات، وأن المؤمن يجب أن يكون أمينًا على أسرار أمته.

* * *

(ب) إسلام أبي سفيان:

أحست قريش بجرمها، فبعثت أبا سفيان يؤكد العقد ويزيد في مدة الهدنة، فأتى المدينة، ودخل على ابنته أم حبيبة -زوج رسول الله ﷺ- فلما ذهب ليجلس على فراش الرسول ﷺ طوته، فقال: يا بنية ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أو رغبت به عني؟!

فقالت: هو فراش رسول الله، وأنت مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراشه!..

فقال: يا بنية، والله لقد أصابك بعدي شر!..

ثم حاول أن يتلمس في الصحابة من يشفع له عند رسول الله ﷺ ليكلمه في شأن صلح الحديبية، توثيقًا للعقد وزيادة في الهدنة، فلم يفلح في مهمته، ورجع إلى قريش بلا نتيجة حاسمة.

وعاشت قريش لحظات حرجة لا تدري ما يراد بها ولا ماذا تفعل، وتضاربت الأنباء، وخرج أبو سفيان ومعه حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار وينظرون ما يحدق بمكة.

فإذا هم يقعون في أيدي دوريات المسلمين، ويشاء الله أن يسمع به العباس بن عبد المطلب، وكان قد أسلم حديثًا، فيجيره[1] ويذهب به إلى رسول الله ﷺ، ويدور حوار سجلته كتب السير هكذا:

قال الرسول ﷺ: **«ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟!»**.

قال أبو سفيان: بأبي أنت وأُمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئًا بعد.

قال الرسول ﷺ: **«ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله»!»**.

قال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا!!.

فقال له العباس: ويحك، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك.

فشهد أبو سفيان شهادة الحق وأسلم.

قال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئًا.

قال الرسول ﷺ: **«نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»**.

فلما ذهب لينصرف قال الرسول ﷺ: **«يا عباس، احبسه بمضيق الوادي،**

---

(١) أما الآخران فيقال: إنهما رجعا إلى مكة، ويقال: إنهما ذهبا إلى النبي ﷺ وأسلما، وقيل: بل دخلوا مع العباس على رسول الله ﷺ.

عند خطم الجبل[١]، حتى تمر به جنود الله فيراها».

وفي هذا المكان وقف العباس ومعه أبو سفيان وجماعة يشهدون كتائب الإسلام وجنود الرحمن أثناء زحفها المقدس، وكانوا عشرة آلاف من المسلمين.

فلما دهش أبو سفيان من جلال الموقف ورهبته أسر إلى العباس قائلاً: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً.

فقال العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوَّة!

* * *

(جـ) دخول مكة:

حقًّا إنها النبوَّة.

لقد كان شعار ذلك اليوم (**لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**).

وأحكم المسلمون الحصار حول مكة، ودخلوها من أكثر من جهة، ولم يحدث إلا قتال قليل.

ودخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام في اليوم الحادي والعشرين من رمضان سنة ثمان من الهجرة.

وأقبل الرسول ﷺ إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس يطعن به الأصنام التي وصل عددها إلى ستين وثلاثمائة، فتهاوت وتساقطت، والرسول الكريم ﷺ يقول: ﴿**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾[٢].

﴿**جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ**﴾[٣].

ودخل الرسول ﷺ البيت الحرام فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم، ورأى

---

(١) خطم الجبل: بالخاء المعجمة شيء يخرج من الجبل يضيق به الطريق وقيل حطم بالحاء المهملة وهو موضع ضيق تتزاحم فيه الخيل حتى يحطم بعضها بعضاً (بكسره).

(٢) سورة الإسراء، الآية ٨١ . (٣) سورة سبأ، الآية ٤٩ .

إبراهيم عليه السلام مصوراً في يده الأزلام يستقسم بها فقال: قاتلهم الله، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام، ما شأن إبراهيم والأزلام!

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست، وصعد بلال فوق الكعبة ليؤذن بنداء الإسلام الخالد: الله أكبر.. الله أكبر.

وبذلك تبدلت موازين كثيرة، وعلت قيم جديدة، فبلال العبد الحبشي الذي سحب على رمضاء مكة تعذيبًا وفتنة يصعد الآن في أشرف مكان، وأقدس بقعة، وينادي للصلاة، ويسعى بندائه الناس جميعًا.

﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾(٢).

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

وفي هذا المشهد العظيم وقف الرسول ﷺ وأمامه وتحت قدميه أعداء الدعوة الإسلامية ورقابهم رهن كلمة ينطق بها.

فقال: **«يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟!»**

قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: **«فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء!!»**.

وحدث في الغد من يوم الفتح أن عدت خزاعة على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك، فقام رسول الله ﷺ خطيبًا:

«يا أيها الناس إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام من حرام الله إلى يوم القيامة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٧.

(٢) سورة فاطر، الآية ١٠.

(٣) سورة المنافقون، الآية ٨.

فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا ولا يعضد[١] فيها شجرًا، لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها.

ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

فمن قال لكم: إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها.

فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلَّها لكم.

يا معشر خزاعة: ارفعوا أيديكم عن القتل، فلقد كثر القتل إن نفع، لقد قتلتم قتيلا لأدينه، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين، إن شاءوا فدم قاتله، وإن شاءوا فعقله».

وفي رواية للبخاري: «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، لا تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحلل لي إلا ساعة من الدهر.

لا ينفر صيدها، ولا يعضد شوكها، ولا يختلى خلاؤها[٢]، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد».

فقال العباس بن عبد المطلب: إلا الإذخر[٣] يا رسول الله، فإنه لابد منه للدفن والبيوت.

فسكت ثم قال: «إلا الإذخر فإنه حلال».

أصبحت مكة في حمى المسلمين، وطهرت الكعبة تطهيرًا، وأتم الله الفتح.. عندئذ تساءل البعض عن الهجرة واستفتوا رسول الله ﷺ في شأنها.

---

(١) عضد الشجر من باب ضرب: قطعه.

(٢) الخلا: هو الرطب من الكلاء، ومعنى يختلى: يؤخذ ويقطع.

(٣) الإذخر : نبت طيب الرائحة.

وتسوق كتب السنة روايات في هذا المجال:

ففي البخاري عن مجاشع بن مسعود قال: انطلقت بأبي معبد إلى النبي ﷺ ليبايعه على الهجرة فقال: «**مضت الهجرة لأهلها أبايعه على الإسلام والجهاد**».

وفي مسلم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة: «**لا هجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا**».

وفي رواية للبخاري عن عطاء بن أبي رباح قال: زرت عائشة -رضي الله عنها- مع عبيد بن عمير فسألها عن الهجرة، فقالت: لا هجرة اليوم، وكان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ، مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، فالمؤمن يعبد ربه حيث شاء ولكن جهاد ونية.

ويعلق الإمام النووي على هذه الأحاديث فيقول[1] :

(قال العلماء: الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة. وفي تأويل هذا الحديث قولان:

أحدهما: لا هجرة بعد الفتح من مكة لأنها صارت دار إسلام وإنما تكون الهجرة من دار الحرب، وهذا يتضمن معجزة لرسول الله ﷺ بأنها تبقى دار إسلام لا يتصور منها الهجرة.

الثاني: معناه لا هجرة بعد الفتح فضلها كفضلها قبل الفتح كما قال الله تعالى: ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ**﴾[2]).

(١) شرح النووي على مسلم، ج١٣، ص٨.

(٢) سورة الحديد، الآية ١٠ .

(د) آفاق عليا :

تروى كتب السير أن سعد بن عبادة كان يحمل راية الأنصار، فلما مر بأبي سفيان قال:

اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة[١]

فشكا أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال النبي الكريم ﷺ : كذب سعد، بل هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة.

وأمر أن تؤخذ منه الراية، وتدفع إلى ابنه قيس بن سعد، وقيل: دفعها إلى الزبير بن العوام.

وهكذا فالنصر مرهون بالقوة الرحيمة.

والجهاد الإسلامي ليس مغانم وأسلابًا فحسب وإنما هو مبادئ وقيم ورحمة عامة تستنقذ البشرية من أوحالها.

* * *

روى الحافظ البيهقي عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على رحله متخشعًا.

وفي رواية لابن إسحق: وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عُثنونه[٢] ليكاد يمس واسطة الرحل.

وعن ابن مسعود أن رجلاً كلّم رسول الله ﷺ يوم الفتح فأخذته الرعدة، فقال: «**هوِّن عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد**».

وهكذا، تواضع العظماء، بل قل تواضع الأنبياء، فليس بعد النبوّة عظمة!

---

(١) في رواية البخاري «اليوم تستحل الكعبة».

(٢) العثنون: اللحية أو ما فضل منها بعد العارضين.

إن الوسام الأكبر الذي منحه الله لأنبيائه هو العبودية لله، وكان (عبد الله) هو اللقب العام للمصطفين الأخيار.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(١).

وقال جل شأنه: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾(٣).

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾(٤).

وكان العبد الكامل لله رب العالمين هو محمداً ﷺ فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾(٥).

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾(٦).

فذكر كلمة ﴿عَبْدِهِ﴾ دون اتباعها باسم النبي دليل على شهرته بذلك وكماله به.

* * *

اهتمت قريش بالكعبة قبل الإسلام، وظهر هذا الاهتمام في واجبات عامة أهمها:

- السدانة أو الحجابة، وصاحبها بيده مفاتيح الكعبة.
- السقاية ويتولى صاحبها توفير المياه للحجاج.
- الرفادة ويقوم صاحبها بإعداد الطعام لفقراء الوافدين.

وفي يوم الفتح جلس الرسول ﷺ في المسجد، فقام إليه عليّ بن أبي طالب وبيده مفتاح الكعبة، فقال: يا رسول الله، لنا الحجابة مع السقاية.

(١) سورة ص، الآية ١٧ (٢) سورة ص، الآية ٤٥
(٣) سورة مريم، الآية ٢ (٤) سورة مريم، الآية ٣٠
(٥) سورة الإسراء، الآية ١ (٦) سورة النجم، الآية ١٠

فقال ﷺ : «**أين عثمان بن طلحة؟**».

فدعي له فقال: «**هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برٍّ ووفاء**».

لله درك يا رسول الله . . !!

فالإسلام لا يتنكر لمعروف، ولا يهضم ذا حق حقه، ولا ذا فضل فضله.

والإسلام يؤازر كل خير.

والناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، ومن أسلم أسلم على ما سلف من خير.

﴿**فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾(١).

* * *

يروي ابن إسحق عن أسماء بنت أبي بكر:

أنه لما دخل رسول الله ﷺ مكة، ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده (وقد كف بصره).

فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**هلاَّ تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه..!!**».

قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه.

فأجلسه الرسول ﷺ بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال: «**أسلم... فأسلم**».

قالت أسماء: ودخل به أبو بكر وكان رأسه كالثغامة(٢) بياضًا، فقال رسول الله ﷺ : «**غيِّروا هذا من شعره**».

---

(١) سورة يوسف، الآية ٩٠

(٢) الثغامة: نبت أبيض.

وفي رواية للبيهقي: «غيروه ولا تقربوه سوادًا».

لله ما أحلمك يا سيدي يا رسول الله.

ورحم الله شوقي إذ يقول:

وإذا رحمت فأنت أم أو أب   هذان في الدنيا هما الرحماء

شيخ ضرير يسعى إليك، وأنت خير من يسعى إليه.

فإذا بك ترفق بالرجل رغم شركه الذي ظل عليه عشرين عامًا بعد البعثة.

بل تستقبله بالبشر والمودة، وتشد من أزره وتحيي موات قلبه بالإسلام الذي حانت إشراقته في قلب هذا الرجل، وتثلج صدره بالجمال الذي يحبه الله فتدعوه إلى تغيير شيب رأسه بلون آخر زكي.

* * *

في صحيح مسلم: أن أم هانئ بنت أبي طالب حدثت أنه لما كان عام الفتح، مر إليها رجلان من بني مخزوم فأجارتهما، قالت: فدخل عليَّ عليّ بن أبي طالب فقال: أقتلهما، فلما سمعته أتيت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فلما رآني رحب وقال: «ما جاء بك؟!»

قالت: يا نبي الله، كنت أمنت رجلين من أحمائي فأراد عليّ قتلهما؟!

فقال رسول الله ﷺ: «قد أجَرْنا مَنْ أجَرْت يا أم هانئ!!»

ألا فلتشهد الدنيا، هل رأت إكرامًا للمرأة وإعزازًا لرأيها، واعترافًا بتصرفها كما رأت في الإسلام!؟ امرأة يحتمي بها رجلان من أقرباء زوجها في يوم مشهود يقتحم فيه جيش عرمرم.

ويدخل عليها أخوها يريد قتلهما تعقبًا لفلول المشركين، فتغلق عليهما باب بيتها وترفع شكواها إلى الرسول الأمين ﷺ.

فيلقاها مرحبًا، ويمنحها حقًّا سياسيًّا في وقت الطوارئ، بل في وقت الاقتحام والمعركة.

إن المسلمين والمسلمات على قدم سواء.

ولم يستشعر مجتمع الإيمان هذه التفرقة المصطنعة بين الرجل والمرأة إلا في أوقات ضعف الإيمان وضمور العقل وتخلف السلوك.

وما قد يتقوّله البعض عن نصيب المرأة في الميراث أو أحكام خاصة بالمرأة في الفقه الإسلامي، فلا علاقة لها بالتفضيل والتكريم الإلهيين.

فهي نظم تشريعية تقتضيها المصلحة والحكمة، والقول الفصل هو قول ربنا: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾[1]

* * *

قال ابن هشام: بلغني أن رسول الله ﷺ حين افتتح مكة ودخلها قام على الصفا يدعو، فأحدقت به الأنصار فقالوا فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم فيها؟!

فلما فرغ من دعائه قال: «**ماذا قلتم؟!**»

قالوا: لا شيء يا رسول الله.

فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال رسول الله ﷺ: «**معاذ الله، المحيا محياكم والممات مماتكم**».

وفي رواية لأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ثم أتى الصفا فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره ويدعوه.

والأنصار تحت يقول بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته.

قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لم يخف علينا، فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى يقضى.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٩٥

فلما قضى الوحي رفع رأسه ثم قال: «يا معشر الأنصار، أقلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة في عشيرته؟!».

قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله.

قال: «فما اسمي إذن؟ كلا إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم».

فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنّ بالله ورسوله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم».

موقف جليل، تتزاحم فيه مشاعر الوفاء والحب والتقدير.

وطرفاه هما رسول الله الصادق الأمين ﷺ، والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة.

ومع ما تعنيه (مكة) في قلب رسول الله ﷺ، فهي منشأ صباه وشبابه وكهولته، وموطن أهله وعشيرته، أحب أرض الله إلى الله وإلى رسول الله ﷺ.

إلا أن للمدينة موقفًا لا ينسى، وللأنصار مكانة لا تجحد، فهي موطن الهجرة، وهم أهل النصرة، وهم الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وفي يوم العودة، والنصر المؤزر، وولاء الناس للإسلام ورسوله، يظل الوفاء لواءً مرفوعًا.

وعندما يتوجس الأنصار يعاجلهم الرسول ﷺ بالبيان الشافي: المحيا محياكم والممات مماتكم.

وتغدو المدينة حرمًا آمنًا يضم بين جنباته روضة من رياض الجنة.

* * *

براءة من الله ورسوله

في القرآن المجيد سورة تسمى (براءة) أو (التوبة) وهي التاسعة في ترتيب المصحف الشريف.

وتستفتح هذه السورة على غير ما عهد في كافة السور القرآنية من البدء بالبسملة، وذلك لأن سورة (براءة) مع سابقتها سورة (الأنفال) كأنهما سورة واحدة، فكثير من آيات سورة (براءة) قد فصلت ما أجمل في سورة الأنفال، مثل قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾

قد فصل في قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.. الآيات.

وقوله سبحانه في سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ..﴾

قد فصلته آيات متعددة في سورة (براءة) تتعلق بالقتال والخروج والنصرة والنفير والاستشهاد.

ومن جهة أخرى فإن سورة (براءة) تبدأ بداية حاسمة وتقف وقفة تصفية مع المشركين الذين آذوا المسلمين، ونقضوا عهودهم، ولم يرقبوا في مؤمن إلاً ولا ذمة.

ولا يتناسب مع ذلك البدء بالبسملة المشتملة على الرحمة..

هذا وسورة (براءة) من آخر ما نزل من سور القرآن العظيم، ولها سبب يروى نزلت عليه، ففي العام التاسع من الهجرة ذهب أبو بكر الصديق أميراً على

الحجاج المسلمين إلى مكة، وكانت الكعبة حتى ذلك الوقت يحج إليه المشركون رغم تحطيم الأصنام يوم فتح مكة.

وخلال موسم الحج نزلت سورة (براءة) تعلن تصفية الحج من كل مظاهر الجاهليين، وتجعل الكعبة خالصة للإسلام وفي حمى المسلمين، وأعلن المتحدث الرسمي للرسول ﷺ، وهو سيدنا عليّ بن أبي طالب، على الملأ من المسلمين والمشركين، يوم الحج الأكبر من العام التاسع، أربعة مبادئ أساسية هي:

«أيها الناس: لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فعهده إلى مدته..»

وقرأ صدر سورة (براءة) إلى ما يقرب من أربعين آية ترسي قواعد الدولة الإسلامية الراشدة..

فهذه السورة تبدأ بموقف خاص مع مشركي العرب الذين استمروا على عدائهم للدعوة الإسلامية أكثر من عشرين عامًا استنفدت فيها كافة الوسائل لتمكين الدعوة من أداء رسالتها الخالدة..

ولكن هؤلاء القوم ظلوا على حقدهم الدفين وعدائهم المستحكم ومقاومتهم المستميتة، فكان لابد من المواجهة الحاسمة..

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

والملاحظ هنا أن الآية الأولى بدأت بالإخبار بثبوت براءة الله ورسوله من معاهدة المسلمين للمشركين الذين هم أئمة الكفر وسدنة الباطل وطواغيت الفساد.

والآية الثانية أعلنت ذلك وعلقت الإعلان بالناس كافة، مسلمهم وكافرهم، معاهدهم وغير معاهدهم، ليكون الجميع شهودًا على هذا الخبر بثبوت أن الله ورسوله قد برئا من العهد مع المشركين وأنه منبوذ إليهم.

وقد حدد الله تعالى لهؤلاء المشركين أربعة أشهر يفيئون فيها إلى رشدهم، ويراجعون موقفهم من الإسلام الذي طالت مسالمته لهم وتحمله الأذى منهم.

قال الإمام ابن كثير[1] :

واختلف المفسرون ههنا اختلافًا كثيرًا، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أما من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، وأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ وللحديث **«ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته»**.

وهذا أحسن الأقوال وأقواها».

ويوم الحج الأكبر هو يوم عرفة، لأن الحج عرفة، وقيل هو يوم النحر، لأن فيه تمام الحج، ومعظم أفعاله من الطواف والنحر والحلق والرمي.

أو وصف الحج بالأكبر في مقابل العمرة لأنها تسمى الحج الأصغر.

وقيل: إن يوم الحج الأكبر هو ذلك اليوم الذي حضره الناس يوم تلاها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لاجتماع المسلمين والمشركين فيه، فهو يوم عظيم في قلب كل مؤمن وكافر..

وهذه البراءة العامة كانت محكومة بعدة ضوابط هامة:

أولاً : أنها فرقت بين الغادر والوفي، فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ج٣ ، ص ٣٣١

يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[1].

ثانيًا: رغم إعلان الحرب وانقضاء فترة الهدنة فإن من استجار بالمسلمين وحاول أن يتفهم الدين أو أن يقضي حاجة له في دار الإسلام فإنه يجار. . قال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[2].

وهذا الحكم ثابت إلى يوم القيامة، فلا غدر ولا خيانة.

وقد أمَّن الرسول ﷺ مسيلمة الكذاب عند قدومه إلى المدينة رغم ادعائه النبوَّة.

كما أمن مندوبيه عندما حملا رسالته التي يزعم فيها أن الله أشركه في الأمر، وقال لهما ﷺ: **«وأنتما تقولان بمثل ما يقول؟!»**

قالا: نعم.

فقال: **«أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما»**.

ومن هنا قال العلماء[3]:

من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أمانًا - أعطي أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه.

لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من الإقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فما زاد عن أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله تعالى.

---

(١) سورة التوبة، الآية ٤

(٢) سورة التوبة، الآية ٦

(٣) تفسير ابن كثير، ج٢، ص ٣٣٧

ثالثًا: حددت الآيات بعد ذلك ملامح هؤلاء الذين تبرأ الله ورسوله منهم، فجاءت مجموعة أوصاف هي قوله تعالى:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۞ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾[1].

ثم كشفت الآيات تاريخهم العفن وماضيهم في الضلال والإضلال الذي ما زالوا عليه، فقالت:

﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۞ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

هذا: ومعنى كلمة «إلاًّ» أنهم لم يراعوا حلفًا ولا قرابة ولا إلهًا، قال الإمام الزمخشري:

والوجه أن اشتقاق «الإل» بمعنى الحلف لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه من الإل وهو الجؤار.

وله أليل، أي أنين يرفع به صوته.

ودعت أليلها إذا ولولت.

ثم قيل لكل عهد وميثاق «إل».

وسميت به القرابة لأن القرابة عقدت بين الرجلين ما لا يعقده الميثاق.

* * *

(١) سورة التوبة، الآيات ٨-١٠.

(٢) سورة التوبة، الآيتان ١٢ و ١٣ .

(٣) الكشاف، ج٢، ص ١٧٦ .

المبحث الثاني

من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى

- بين يدي الإسراء والمعراج .
- التوقيت الزمني.
- الترابط المكاني.
- من آيات ربه الكبرى.
- إسراء المسلم ومعراجه.



بين يدي الإسراء والمعراج

الإسراء هو السير ليلاً.

والمعراج هو سلم الصعود.

والمقصود هو انتقال النبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ثم الصعود إلى السموات العلا، ثم إلى سدرة المنتهى، ثم إلى حيث شاء العلي الأعلى، كل ذلك في جزء يسير من الليل.

وقد ثبت الإسراء بنص قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

ويشير إلى المعراج صدر سورة النجم في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[2].

والأحاديث الصحيحة المخرّجة في البخاري ومسلم وغيرهما كثيرة ضافية.

وقد نقل الإمام ابن كثير في تفسيره عن بعض العلماء قولهم: (وقد تواترت الروايات في الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعليّ، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبيّ بن كعب، وعبد الرحمن بن قرط، وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة بن جندب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم أجمعين، منهم من ساقه

---

(١) سورة الإسراء، الآية ١

(٢) سورة النجم، الآيات ١٣ - ١٨

بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[(١)])[(٢)].

وقدرة الله فوق الشك، وتصدير آية الإسراء بكلمة ﴿سُبْحَانَ﴾ دليل على عظم الأمر الذي يليها، وإذا كنا نحن البشر قد اخترعنا الطائرات الأسرع من الصوت، والصواريخ عابرة القارات والمحيطات وسفن الفضاء بما لها من طاقات هائلة -أفيعجز رب البشر، وواهب القدر، وبارئ النسم، ومالك الملك والملكوت؟!!

وقد حكى القرآن المجيد عن عجائب تشبه الإسراء والمعراج وإن لم تقاربه، فالرياح سخرت لسليمان عليه السلام تحمله إلى آفاق بعيدة عبر عنها القرآن بقوله: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[(٣)].

وأخبر القرآن أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر، سواء قلنا إنه سليمان أوعبد صالح أو ملك مقرب.

قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾[(٤)].

والتصديق بالإسراء والمعراج -بعد ما صح النقل- هو مرتبط ارتباطًا لا ينفصم بقضية النبوّة، ولعل موقف أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- خير تعبير عن ذلك المعنى، حين جاءه المشركون قائلين: هل لك في صاحبك يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس.

---

(١) سورة الصف، الآية ٨ .

(٢) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص ٢٤ - طبعة الحلبي.

(٣) سورة سبأ، الآية ١٢ .

(٤) سورة النمل، الآية ٤٠ .

قال أبو بكر: أو قال ذلك؟.

قالوا: نعم.

قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق.

قالوا: أتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟!

قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء، في غدوة أو روحة.

ومن يومها سمي أبو بكر صدِّيقًا.

حقًّا إن الإسراء والمعراج أمر عجيب ومثير للدهشة، لكن العجب والدهشة شيء والإنكار شيء آخر.

فما كل عجيب منكر، ولا كل مدهش غير واقع.

فالمعجزات جميعًا عجيبة ومدهشة ومثيرة، لكنها واقعة.

وغرائب المخترعات كذلك تثير تساؤلات لدى العامة والخاصة، ولكن نصدق بها ونحسها ونلمس آثارها.

قد يقول البعض: إن هناك آراء تزعم أن الإسراء والمعراج وقعا منامًا؟!

وبقليل من التأمل نرى أنه لو وقعا منامًا لما كان لهما كبير اعتبار، فإن في الرؤى عجائب وعجائب، ولما بادرت قريش إلى التكذيب فإن كل إنسان له من الرؤيا ما يحمله على التصديق بمثل ذلك.

وإن التعبير القرآني في قوله ﴿بِعَبْدِهِ﴾ له دلالته، فإن العبد مجموع الروح والجسد.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[2].

---

(١) سورة العلق، الآيتان ٩ و١٠ (٢) سورة الجن، الآية ١٩

وما قد يستدل به من بعض الروايات التي فيها (وهو نائم) أو (بين النائم واليقظان) فلا حجة فيها -كما يقول القاضي عياض[١]- إذ قد يكون ذلك حاله أول وصول الملك إليه، وليس في الحديث ما يدل على كونه نائمًا في القصة كلها.

ومن المعروف لدى علماء الحديث أن هناك رواية عن شريك بن عبد الله ابن أبي نمر -خرّجها البخاري- فيها أوهام أنكرها عليه العلماء، منها:

١- أن الإسراء وقع منامًا.

٢- وأنه كان قبل أن يوحى إليه.

٣- أن الجبار عز وجل، رب العزة تبارك وتعالى، دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه ما شاء الله.

وقد نقل النووي عن القاضي عياض قوله:

وقد جاء في رواية شريك في هذا الحديث أوهام أنكرها عليه العلماء، وقد نبه مسلم على ذلك بقوله: (فقدم وأخر وزاد ونقص).

وقال الإمام ابن كثير[٢]:

وقوله في حديث شريك عن أنس: «**ثم استيقظت فإذا أنا في الحجر**» معدود في غلطات شريك أو محمول على أن الانتقال من حال إلى حال يسمى يقظة.

ويقول أيضًا[٣] :

(وأما قول شريك عن أنس في حديث الإسراء: (ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) فقد يكون من فهم الراوي فأقحمه في الحديث، والله أعلم).

---

(١) شرح النووي على مسلم، ج٢ ، ص ٢١٠

(٢) و (٣) السيرة النبوية، ج٢، ص ١٠٤ و ١٠٥

ونسوق رأي عـائشة أم المؤمنـين رضي الله عنها، كما رواه مـسلم عن الشعـبي عن مسـروق قال: كنت مـتكئًا عند عـائشة فقـالت: يا أبا عائشـة، ثلاث من تكلم بواحدة منهنّ فقد أعظم على الله الفرية.

قلت: ما هنّ؟

قالت: من زعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية.

قال: وكنت مـتكئًا فجلست فقلت: يا أم المـؤمنين، أنظريني ولا تعجلي، ألم يقل الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾(١). ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾(٢).

فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غـير هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء سادًّا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض**».

فقـالت: أولم تسمـع أن الله يقول: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(٣).

أو لم تسمع أن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(٤).

قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيـئًا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(٥).

قالت: ومن زعم أنه يـخبر بما يكون في غـد فقد أعظـم على الله الفرية، والله يقول: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾(٦).

---

(١) سورة التكوير، الآية ٢٣
(٢) سورة النجم، الآية ١٣
(٣) سورة الأنعام، الآية ١٠٣
(٤) سورة الشورى، الآية ٥١
(٥) سورة المائدة، الآية ٦٧
(٦) سورة النمل، الآية ٦٥

وعن معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ نسوق وجوهًا ذكرها الإمام الرازي في تفسيره[1]:

أحدها: أن جبريل دنا من النبي ﷺ، أي بعد ما مد جناحه، وهو بالأفق عاد إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها، وقرب من النبي ﷺ، وعلى هذا ففي ﴿تدلّى﴾ ثلاثة وجوه:

١- فيه تقديم وتأخير، تقديره: ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا من النبي ﷺ.

٢- الدنو والتدلي بمعنى واحد، كأنه قال: دنا فقرب.

٣- دنا أي قصد القرب من محمد ﷺ وتحرك عن المكان الذي كان فيه فتدلى فنزل إلى النبي ﷺ.

الثاني: أن محمدًا ﷺ ﴿دنَا﴾ من الخلق والأمة ولان لهم وصار كواحد منهم ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي فتدلى إليهم بالقول اللين والدعاء الرفيق فقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

وعلى هذا ففي الكلام كمالان:

كأنه تعالى قال: إلا وحي يوحى جبريل على محمد فاستوى محمد وكمل، فدنا من الخلق بعد علوه، وتدلى إليهم وبلغ الرسالة.

الثالث: وهو ضعيف سخيف، وهو أن المراد منه هو ربه تعالى، وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان، اللهم إلا أن يريد القرب بالمنزلة.

وعلى هذا يكون منه ما في قوله ﷺ حكاية عن ربه تعالى: **«من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعًا، ومن تقرّب إلى ذراعًا تقرّب إليه باعًا، ومن مشى إلي أتيته هرولة»**.

---

(١) دار إحياء التراث العربي - الطبعة الثالثة، ج ٢٧ ، ص ٢٨٦ .

إشارة إلى المعنى المجازى. . .».

وهناك استدلال طريف مأخوذ من ختام آية الإسراء والنجم، ففي آية الإسراء قال تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾.

وفي آية النجم قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾، فالملاحظ هنا أن الآيتين أثبتتا رؤية الآيات ولم تشيرا إلى رؤية الله تعالى فلو وقعت رؤية الله سبحانه لكانت أولى بالتسجيل والتنبيه والإشارة. بل يذهب بعض العلماء إلى أهمية تفسير آيات النجم برؤية جبريل عليه السلام فيقول[1]:

ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى، فإن النبوّة لا يتوقف ثبوتها عليها (رؤية الله) ألبتة.

* * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢١٤ - طبعة المكتب الإسلامي سنة ١٣٩٩ هـ.

التوقيت الزمني

متى وقع الإسراء والمعراج؟

سؤال قد يبدو غريبًا، إذ جرت عادة المسلمين أن يحتفلوا بذكراها في السابع والعشرين من شهر رجب، وهناك رواية شريك التي أشرنا إليها تذكر أنه وقع قبل أن يوحى إلى النبي ﷺ .

وأضع أمام القارئ الكريم تحقيق العلماء في هذا المجال.

قال القاضي عياض[1] :

منها قوله: (وذلك قبل أن يوحى إليه) وهو غلط لم يوافق عليه، فإن الإسراء أقل ما قيل فيه أنه كان بعد مبعثه ﷺ بخمسة عشر شهرًا.

وقال الحربي: كان ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة.

وقال الزهري: كان ذلك بعد مبعثه ﷺ بخمس سنين.

وقال ابن إسحق: أُسري به ﷺ وقد فشا الإسلام بمكة والقبائل.

وقال الإمام ابن كثير[2]:

ذكر ابن عساكر أحاديث الإسراء في أوائل البعثة. وأما ابن إسحق فذكرها في هذا الموطن بعد البعثة بنحو عشر سنين.

وروى البيهقي من طريق موسى بن عقبة عن الزهري أنه قال: أُسري برسول الله ﷺ قبل خروجه إلى المدينة بسنة.

قال : وكذلك ذكره ابن لهيعة عن أبي الأسود بن عروة.

---

(١) نقلاً عن شرح النووى على صحيح مسلم، ج٢، ص ٢٠٩.

(٢) السيرة النبوية، ج٢ ، ص ٩٣.

ثم روى الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير عن أسباط بن نصر عن إسماعيل السدي أنه قال: فرض على رسول الله ﷺ الخمس ببيت المقدس ليلة أُسري به قبل مهاجره بستة عشر شهراً.

فعلى قول السدي يكون الإسراء في شهر ذي القعدة.

وعلى قول الزهري وعروة يكون في ربيع الأول.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عثمان عن سعيد بن ميناء عن جابر وابن عباس قالا: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول، وفيه بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات.

فيه انقطاع، وقد اختاره الحافظ عبد الغني بن سرور المقدسي في سيرته.

وقد أورد حديثًا لا يصح سنده -ذكرناه في فضائل شهر رجب - أن الإسراء كان ليلة السابع والعشرين من رجب، والله أعلم.

ومن الناس من يزعم أن الإسراء كان أول ليلة جمعة من شهر رجب وهي ليلة الرغائب التي أحدثت فيها الصلاة المشهورة، ولا أصل لذلك والله أعلم.

ويقول شارح العقيدة الطحاوية[1] :

فالذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة قبل الهجرة بسنة وقيل بسنة وشهرين، ذكره ابن عبد البر. اهـ

وعلى هذا الرأي المنسوب إلى أئمة النقل يكون لهذا التوقيت دلالته.

ففي العام العاشر من البعثة فجع الرسول ﷺ بموت عمه أبي طالب وزوجه السيدة خديجة، وهما من هما دفاعًا عن الإسلام وحضانة له حتى سماه الرسول ﷺ عام الحزن.

وكان يقول: **«والله ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب»**.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢٤٦، طبعة المكتب الإسلامي

وكان يقول عن خديجة: «والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء».

ولما ضاقت مكة برسول الله ﷺ ذهب إلى الطائف يعرض دعوته على أهلها، فأغروا به سفهاءهم وصبيانهم يرضخونه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان.. فرجع إلى مكة مكروبًا مهمومًا، وتوجه إلى الله بدعاء ضارع:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك. لك العتبى حتى ترضى. ولا حول ولا قوة إلا بك».

لقد كان يوم الطائف أشد يوم وأقساه في حياة رسول الله ﷺ.

ففي صحيح البخاري عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من أُحد؟!

فقال ﷺ: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة (يوم الطائف)، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وماردوا به عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.. فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ ثم قال: يا محمد، الأمر ذلك، فما شئت، إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين» - وهما جبلان محيطان بمكة.

فقال ﷺ : «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا».

* * *

إن هذا التوقيت للإسراء والمعراج له أكثر من مغزى.

إنه يعلمنا أن لنا قبلة لا نحيد عنها، وملجأ لا نعوذ بسواه، إنه يعلمنا موقف الضراعة والعبودية الخاشعة أمام رب الكون والكائنات، فهو -سبحانه- الخالق والمدبر، وهو -سبحانه- القادر المهيمن، وهو -سبحانه- العليم الحكيم.

فإذا ضاقت بالإنسان أسباب الأرض فليتصل برب الأسباب والمسببات، فرحمة الله قريب من المحسنين، ونصر الله آت -لا ريب فيه- للمؤمنين.

وقد فطر الإنسان على الضراعة إلى الله وقت الشدة ولكن الغريب في تلك الفطرة أن الإنسان لا يكاد يستشعر بسطة جسم أو فضل نعمة حتى يقول قولة قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[(١)].

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا﴾[(٢)].

أي أنه في حال الشدة ينسى المرء كل الشركاء ولا يعتقد إلا في قدرة الله وحده، فيتحقق الرجاء وينقذه الله مما هو فيه من أهوال.. ولكن الإنسان تلهيه النعمة فيعرض عن شكر الله.

فهل نسي المرء أن إله البحر هو إله البر، وأن صاحب الهيمنة المطلقة هو الله وحده؟!

وهذا هو معنى الآية التالية : ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ

---

(١) سورة القصص، الآية ٧٨

(٢) سورة الإسراء، الآية ٦٧

حاصبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴾[١].

وأيضًا أليس من الممكن أن تعود الشدة ويقف الإنسان نفس الموقف السابق يحيط به الموج من كل مكان؟!

وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾[٢].

ولعل تلك الآيات من سورة الإسراء لها دلالتها بتوقيت تلك المعجزة لرسول الله ﷺ، فهو أول المؤمنين وأول العابدين، وهو العبد الشكور.

* * *

(١) سورة الإسراء، الآية ٦٨

(٢) سورة الإسراء، الآية ٦٩

الترابط المكاني

من أين بدأ الإسراء ؟!

صريح القرآن المجيد أنه بدأ من المسجد الحرام بمكة.. لكن هل المسجد الحرام هو الكعبة أو الحرم مطلقًا؟!

بالتأمل في الروايات نجد أكثر من مبدأ..

ففي رواية شريك قال: سمعت أنس بن مالك يحدث عن ليلة أُسري بالنبي ﷺ من مسجد الكعبة.. إلخ.

وكان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «**فرج سقف بيتي وأنا بمكة..**» إلخ.

وفي رواية لمالك بن صعصعة: أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أُسري به قال: «**بينا أنا في الحطيم، وربما قال في الحجر مضجعًا إذ أتاني آت...إلخ**».

وفي رواية أنه أُسري برسول الله ﷺ من دار أم هانئ بنت أبي طالب..

من هنا يمكن أن نفهم أن المراد بالمسجد الحرام هو الحرم كله لإحاطته بالمسجد واتصاله به؛ ويرى بعض العلماء أن الحرم كله مسجد.

أيًّا ما كان فإن الإسراء من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى بالقدس الشريف، ثم كان المعراج إلى السموات العلا، ثم إلى سدرة المنتهى، ثم إلى حيث شاء العلى الأعلى.. كل ذلك في جزء يسير من الليل.

فبم يوحى ذلك كله؟!

إنها بشرى عظيمة للرسول ﷺ والمسلمين في هذا الوقت الذي ضاقت فيه مكة عليهم.

إنها بشرى النصر والفرج القريب.

إنها بشرى الأمل في وجه الله الكريم.

إنها بشرى التمكين لدين الله.

إنها الوحدة الكونيـة التي تترابط في عقل المسلم وقلبه. إنهـا وحدة الآفاق في المشارق والمغارب إيماءً إلى أن هذا الأمر سيبلغ ما بلغ الليل والنهار، وسيطلع على ما طلعت عليه الشمس.

وما هي إلا سنوات قلائل حتى قـامت الدولة الإسلامية من المدينة المنورة، ودخل الناس في دين الله أفـواجًا، وذهبت كتـائب الإيمان شرقًـا وغربًا، ترسي قواعد العدل، وتعلي حقوق الإنسان، وتبني الحياة المثلى.

ومن جهة أخرى فـإن هناك وحدة عقدية وترابطًا تاريخيًّا بين أماكن ثلاثة أشرق منها نور التوحيد، تلك هي: مكة وسيناء والقدس.

فإن الرسـول ﷺ أُسري به من مكة المكرمة، ومـرّ بطور سيناء، وصلى إمامًا بالأنبياء في القدس الشريف.

ومن المعلوم أن هذه الأمـاكن الثـلاثة بارك الله حولهـا، واصطفـاها منزلاً للوحي، وأحدث فيها من عجائب القدرة وباهر المعجزات ما جعلها مهفى أرواح المؤمنين.

ولعل صدر سورة (التين) يشير إلى هذا الترابط الديني بين هذه الأماكن.. قال الله تعالى:

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾.

فالقسم الأول ببقـعة مباركة جرت فيهـا تفاصيل بعث إلهى وإعداد روحي لعبـد الله ورسوله عيـسى ابن مريم، حيث نشـأ في بيت المقدس بجوار غـصون الزيتون ومنابت التين.

والقسم الثاني بسـيناء تذكيرًا بما كان عند الجبل من آيات ومـعجزات حيث كلم الله موسى تكليمًا وألقى عليه الألواح تفصيلا لكل شيء.

وقد سجل القرآن حديثًا طويلاً عن هذا المكان وأطلق عليه تعبيرات متعددة منها:

- الجبل في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾[١].

- الوادي المقدس في قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[٢].

وطوى اسم للوادي، وقيل هو الشيء المثنى المكرر؛ فطوى معناها مرتين، أي قدس الوادي كرة بعد كرة أو نودي موسى نداءين.

- طور سيناء في قوله جل شأنه: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾[٣].

- الطور كما في قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾[٤].

والطور هو الجبل، وقيل هو الجبل الذي فيه أشجار، فإن لم يكن فيه شجر فهو جبل فقط.

والقسم الثالث بمكة المكرمة التي شرفها الله بالكعبة وجعلها أم القرى، وحرمًا آمنًا يجبى إليه ثمرات كل شيء.

وهكذا فإن هناك رابطة روحية علوية قدسية تجمع بين مكة وسيناء والقدس.

فلا يجوز أن ينزع هذا العقد الفريد من عنق المسلمين، فهم أمناء الله في أرضه، وأولى الناس بأنبيائه ورسله.

وإن تاريخ الإسلام الطويل لا يعرف إلا التسامح والبر في معاملة غير المسلمين، طالما ألقوا إلينا السلم ولم يظاهروا أحدًا علينا.

يقول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٥].

* * *

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤٣
(٢) سورة طه، الآية ١٢
(٣) سورة المؤمنون، الآية ٢٠
(٤) سورة الطور، الآيتان ١ و ٢
(٥) سورة الممتحنة، الآية ٨ .

من آيات ربه الكبرى

في رحلة الإسراء والمعراج وقعت مشاهد غيبية تراءى للرسول ﷺ فيها الماضي والحاضر والمستقبل، وجمع له من الآيات مالم يجتمع لأحد قبله أو بعده.. وزالت حجب وموانع.

وارتقى ﷺ آفاقًا عليا في عالم الملأ الأعلى، وتواردت أمام بصره صور من الحياتين الأولى والآخرة لا يقدر عليها إلا عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال..

وإليك بعض هذه الآيات:

(١) المناجاة العلوية:

فرضت الصلاة على الأمة الإسلامية ليلة الإسراء والمعراج من خلال مناجاة علوية ناجى فيها الرسول ﷺ ربه تبارك وتعالى واشترك فيها موسى عليه السلام..

وتخيل معي حديثًا مع الله، هو الصدق كله، والصفاء كله، والنور كله..

وتتقاصر الكلمات عن وصف هذه المناجاة، ونكتفي بما يقربها وهو النص الصحيح كما ورد عن المعصوم ﷺ ..

ففي صحيح مسلم من رواية ثابت البناني عن أنس:

«ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال..

قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها..

فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة.

فنزلت إلى موسى ﷺ فقال: ما فرض ربك على أُمتك؟

قلت: خمسين صلاة.

قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أُمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم.

قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف على أُمتي.

فحط عني خمسًا، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عنى خمسًا.

قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد، إنهنّ خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون.

ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة.

قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

فقال رسول الله ﷺ : فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه».

وننبه القارئ الكريم إلى بعض الملاحظات:

١- جاء في بعض الروايات أن المناجاة كانت بعد مرحلة سمع فيها صريف الأقلام، وهو صوت ما تكتبه الملائكة من أُقضية الله تعالى ووحيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ، أو ما شاء الله تعالى من ذلك أن يكتب . .

وجاء في بعض الروايات أن الوصول إلى سدرة المنتهى كان بعد المناجاة.

وسدرة المنتهى أو السدرة المنتهى سميت بذلك لكونها ينتهى إليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها، ولم يجاوزها أحد إلا الرسول ﷺ .

وفي صحيح مسلم بسنده عن مرة عن عبد الله قال: «لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يُعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهبط به من فوقها فيقبض منها».

وجاء في بعض الروايات أن سدرة المنتهى فوق السماء السابعة، ويمكن الجمع بين الروايتين بأن يكون أصلها في السماء السادسة، وتمتد ظلالها لتشمل السموات السبع والجنة.

وعلى كل فالمناجاة وقعت في موقع علوي روحي وضَّاء.

وليكن معلوم أن محمداً ﷺ في تلك المناجاة لم يكن أقرب إلى الله مكانًا من موسى وهو في طور سيناء وإن كان أقرب إلى الله مكانة ومنزلة ورفعة.

٢- جاء في بعض الروايات قال:

«فراجعت ربي فوضع شطرها قال: فرجعت إلى موسى عليه السلام فأخبرته قال: راجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، قال: فراجعت ربي فقال هي خمس وهي خمسون، ولا يبدل القول لدي».

وفي رواية:

«فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى حتى صارت إلى خمس صلوات».

ولعل الرواية التي فيها الحط خمسًا هي الأصل، وباقي الروايات اختصرت وأوجزت المراجعات.

٣- لعل اختصاص موسى عليه السلام بالمراجعة في أمر الصلاة باعتباره صاحب الشريعة السابقة، فإن التوراة هي الأصل الذي توارد عليه أنبياء بني

إسرائيل، حتى إن الجنّ أنفسهم تفطنوا لهذا المعنى وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾(١). ولم يقولوا من بعد عيسى عليه السلام.

ومن جهة أخرى فإن موسى هو كليم الله، وصاحب المناجاة في الوادي المقدس طوى، وشأن أصحاب المقامات المتشابهة أن يتلاقوا..

وقد وهم بعض الباحثين فظن أن في المراجعة مع موسى عليه السلام هيمنة على رسالة الإسلام، وأن في تخفيف الصلاة من خمسين إلى خمس تراجعًا في الحكم..

وهذا خطأ كبير وضلال في التفكير، فإن الرسالات كلها إنما هي تشريع الله وحده، ولا أحد من الرسل يملك من الأمر شيئًا، وما حدث إنما هو تأكيد لرحمة الله بعباده، وبيان لفضل الله في ثوابه، وإظهار لكرامة من يشاء من عباده..

(٢) لقاء الأنبياء:

التقى رسول الله ﷺ بالأنبياء في أكثر من مكان ورآهم على أوضاع شتى، ونعتهم ﷺ وقرب شبههم لأصحابه.

وكان قمة الفضل لسيدنا رسول الله ﷺ أن أمهم في صلاة جامعة..

وأدع القارئ يتأمل النص الوارد:

ففي إحدى الروايات الصحيحة في مسلم:

«ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل.

فقيل: من أنت؟ قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟ قال: محمد.

قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه.

(١) سورة الأحقاف، الآية ٣٠

ففتح لنا فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام.

فقيل: من أنت؟ قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟ قال: محمد .

قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه.

ففتح لنا فإذا أنا بابْنَي الخالة عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما، فرحبا ودعوا لي بخير.

ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل.

فقيل: من أنت؟ قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟ قال: محمد .

قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه.

ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام إذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلي السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام.

فقيل: من أنت؟ قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟ قال: محمد .

قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه.

ففتح لنا فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعا لي بخير.

قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[1].

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل.

---

(١) سورة مريم، الآية ٥٧

فقيل: من أنت؟ قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟ قال : محمد .

قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه.

ففتح لنا فإذا أنا بهارون عليه السلام، فرحب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام.

فقيل: من أنت؟ قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟ قال: محمد .

قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه.

ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل.

فقيل: من أنت؟ قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟ قال محمد .

قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه.

ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه».

* * *

وأنبه القارئ إلى معنى التساؤل في قوله «وقد بعث إليه؟».

فالصحيح الذي اختاره العلماء أن المراد: وقد بعث إليه للإسراء والمعراج، وليس المراد الاستفهام عن أصل البعثة والنبوّة، فإن ذلك لا يخفى على الملأ الأعلى إلى هذا الوقت.

كذلك ورد في بعض الروايات أن إبراهيم عليه السلام وجد في السماء السادسة وليس في السابعة كما ورد في الرواية السابقة.

ومما يقطع به المحدثون أن رواة أحاديث الإسراء والمعراج بعضهم قدّم وبعضهم أخرّ، وبعضهم زاد وبعضهم نقص، وبعضهم أدخل فهمًا له أو تفسيرًا يراه.

فيكفي أن نؤمن بأصل الرواية وندع التفاصيل لعلام الغيوب.

هذا، وعن وصف الأنبياء نقرأ رواية عن جابر:

أن رسول الله ﷺ قال: «**عرض عليّ الأنبياء فإذا موسى ضرب**[1] **من الرجال كأنه من رجال شنوءة.**

ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهًا عروة بن مسعود.

ورأيت إبراهيم صلوات الله عليه فإذا أقرب من رأيت به شبهًا صاحبكم يعني نفسه».

وفي رواية عن ابن عباس قال:

قال رسول الله ﷺ : «**مررت ليلة أُسرى بي على موسى بن عمران عليه السلام، رجل آدم طوال، جعد، كأنه من رجال شنوءة.**

ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس».

آدم : شديد السمرة.

الجعد: مقصود به هنا جعودة الجسم، وهو اجتماعه واكتنازه.

المربوع: ليس بالطويل البائن ولا بالقصير الشائن.

السبط: بفتح الباء وكسرها، ويجوز إسكان الباء مع كسر السين وهو الشعر المسترسل، ليس فيه تكسر.

---

(١) هو الرجل بين الرجلين في كثرة اللحم وقلته، وشنوءة قبيلة معروفة.

وقد صرحت الروايات بتعدد اللقاء

فرأى موسى عليه السلام يصلي في قبره.

وصلى بالأنبياء في بيت المقدس.

ووجدهم على مراتبهم في السموات.

فماذا حصل أولاً؟

يقول الإمام ابن كثير(١) :

والظاهر أن الصلاة بالأنبياء بعد رجوعه إلى بيت المقدس، لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً، وهو يخبره بهم.

وهذا هو اللائق، لأنه كان أولا مطلوبًا إلى الجناب العلوى ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أُريد به اجتمع به هو وإخوانه من النبيين.

ثم ظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل له في ذلك.

وقد ذكر الإمام الشامي في سيرته(٢) حكمًا كثيرة للقاء رسول الله ﷺ بالأنبياء ليلة الإسراء والمعراج نختصرها فيما يلي:

١- الحكمة في كون آدم في السماء الدنيا لأنه أول الأنبياء وأول الآباء وهو أصل فكان الأول في الأولى ولأجل تأنيس النبوة بالأبوة..

ووقع التنبيه بآدم بما وقع له من الخروج من الجنة إلى الأرض بما سيقع للنبي ﷺ من الهجرة إلى المدينة، والجامع بينهما ما حصل لكل منهما من المشقة وكراهة فراق ما لقيه في الوطن ثم كان لكل منهما أن يرجع إلى وطنه

(١) تفسير القرآن العظيم، ج٣ ، ص ٢٣ .

(٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي - تحقيق الأستاذ عبد العزيز عبد الحق ج٣ ص١٨٠ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة.

الذي خرج منه.

٢- وحكمة لقاء عيسى ويحيى في السماء الثانية لأنهما أقرب الأنبياء عهدا بسيدنا رسول الله ﷺ.

وعيسى كذبته اليهود وهموا بقتله فرفعه الله تعالى وأما يحيى فقتله اليهود فوقع التنبيه بهما على حال رسول الله ﷺ بعد انتقاله إلى المدينة في مرحلة ثانية من الامتحان باليهود في المدينة بعد امتحان المشركين في مكة..

٣- وحكمة لقاء يوسف في السماء الثالثة تؤذن بحال ثالثة لرسول الله ﷺ تشبه حال يوسف بما جرى له مع إخوته الذين أخرجوه من بين أظهرهم ثم ظفر بهم وصفح عنهم، كذلك نبينا ﷺ أخرجه قومه ثم ظفر بهم في غزوة الفتح وعفا عنهم وقال: أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ ومن جهة أخرى فإن مناسبة لقائه ليوسف في السماء الثالثة أن السنة الثالثة من سنى الهجرة وقعت فيها غزوة أحد التي كانت وقعة أسف وحزن ثم كانت عاقبة الإسلام والمسلمين خيراً.

٤- وحكمة لقاء إدريس في السماء الرابعة -وهي المكان العلي الذي رفعه الله إليه - توحي بحال رابعة وهي علو شأن رسول الله ﷺ حتى خافه الملوك وكتب إليهم يدعوهم إلى الإسلام وحيث إن إدريس هو أول من خط بالقلم فقد توالت رسائل رسول الله إلى ملوك الأرض، فهذا مقام علي وخط بالقلم كنحو ما أوتى إدريس.

٥- وحكمة لقاء هارون في السماء الخامسة لقربه من أخيه موسى، ولقد نال هارون في بني إسرائيل من الأذى ثم الانتصار عليهم ما وقع نظيره لسيدنا رسول الله ﷺ من اليهود في السنة الخامسة فقد نقض اليهود عهدهم مع المسلمين وظاهروا المشركين في غزوة الأحزاب وأرادوا قتل الرسول الكريم ﷺ فأنزلهم الله من صياصيهم وتم قتل بني قريظة شر قتلة وحاق المكر السيء بأهله.

٦- وحكمة لقاء موسى في السماء السادسة يؤذن بما حدث لرسول الله ﷺ في السنة السادسة من فتح خيبر[١] وفدك وجميع حصون اليهود.

٧- وحكمة لقاء إبراهيم في السماء السابعة متعددة:

١- إن النبي ﷺ اعتمر عمرة القضاء في السنة السابعة من الهجرة ودخل مكة مع أصحابه ملبين معتمرين محييا لسنة إبراهيم عليه السلام ومقيما لرسمه الذي كانت الجاهلية أماتت ذكره.

٢- كان إبراهيم في السماء السابعة لأنه الأب الأخير فناسب أن يتجدد للنبي ﷺ بلقائه أنسٌ لتوجهه بعده إلى عالم آخر..

وهناك رواية عن حذيفة بن اليمان ﷺ تنفى الصلاة بالأنبياء في بيت المقدس، وتنفي ربط البراق بالصخرة. وقد خرّجها الإمام أحمد في مسنده عن زر بن حبيش قال: (أتيت على حذيفة بن اليمان ﷺ وهو يحدث عن ليلة أُسري بمحمد ﷺ وهو يقول: فانطلقا حتى أتيا بيت المقدس فلم يدخلاه.

قال: قلت: بل دخله رسول الله ﷺ ليلتئذ وصلى فيه.

قال: ما اسمك يا أصلع؟ فأنا أعرف وجهك ولا أدرى ما اسمك؟

قلت: أنا زر بن حبيش.

قال: فما أعلمك بأن رسول الله ﷺ صلى فيه ليلتئذ؟

قلت: القرآن يخبرني بذلك.

قال: فمن تكلم بالقرآن فلج.. اقرأ.

فقلت: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾.

قال: يا أصلع، هل تجد صلى فيه؟

---

(١) وقعت غزوة خيبر في المحرم من السنة السابعة لكن الله تعالى وعد رسوله ﷺ بها وهو بالحديبية في العام السادس للهجرة عندما نزلت سورة الفتح وفيها قول الله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ أي خيبر.

قلت: لا.

قال: والله ما صلى فيه رسول الله ﷺ ليلتئذ، ولو صلى فيه لكتب عليكم صلاة فيه كما كتب عليكم صلاة في البيت العتيق، والله ما زايلا البراق حتى فتحت لهما أبواب السماء فرأيا الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع، ثم عادا عودهما على بدئهما..

قال زر: ثم ضحك (حذيفة) حتى رأيت نواجذه.

قال حذيفة: وتحدثوني أنه ربطه لا يفر منه، وإنما سخره له عالم الغيب والشهادة...

وهذا الحديث رواه أيضًا الترمذي والنسائي وأبو داود الطيالسي، وقال عنه الترمذي: حديث حسن.

* * *

لكن يبقى تساؤل إذا قلنا بوقوع الصلاة بالأنبياء:

كيف يصلى بالأنبياء وهم موتى؟

وهل في الدار الآخرة عبادة وعمل؟

قال القاضي عياض[1]: اعلم أن للمشايخ وفيما ظهر لنا من هذا أجوبة:

أحدها: أنهم كالشهداء بل هم أفضل منهم، والشهداء أحياء عند ربهم، فلا يبعد أن يحجوا ويصلوا كما ورد في الحديث الآخر، وأن يتقربوا إلى الله بما استطاعوا، لأنهم وإن كانوا قد توفوا فهم في هذه الدنيا التي هي دار العمل، حتى إذا فنيت مدتها، وتعقبتها الآخرة التي هي دار الجزاء، انقطع العمل.

الوجه الثاني: أن عمل الآخرة ذكر ودعاء، قال الله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾[2].

---

(١) نقلا عن شرح النووي على مسلم، ج٢ ، ص ٢٢٧

(٢) سورة يونس، الآية ١٠

الوجه الثالث: أن تكون هذه رؤيا منام في غيـر ليلة الإسراء، أو في بعض ليلة الإسـراء، كمـا قـال في رواية ابن عمـر ﷺ: «**بينا أنا نائم رأيتني أطوف بالكعبة...**» وذكر الحديث في قصة عيسى ﷺ[1].

الوجه الرابع: أنه ﷺ أري أحوالهم التي كـانت في حيـاتهم، ومثلوا له في حال حيـاتهم كيف كانوا وكيف حـجهم وتلبيتهم، كـما قال ﷺ : «**كأني أنظر إلى موسى، وكأني أنظر إلى عيسى، وكأني أنظر إلى يونس عليهم السلام**».

الوجه الخامس: أن يكون أخبر عما أُوحي إليه ﷺ من أمرهم، وما كان منهم، وإن لم يرهم رؤية عين.

٣- البراق:

جاء في الصحيح عن ثابت البناني عن أنس:

أن رسول الله ﷺ قـال: «**أُوتيت بالبـراق، وهو دابة أبيض، طويل، فـوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه.**

قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس،قال: فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء».

ويحسن أن نسوق ما قاله الإمام النووي في هذا المجال[2] :

البراق: هو بضم الباء الموحدة.

قال أهل اللغة: البراق اسم الدابة التي ركبها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء.

قال الزبيدي في مختصر العين، وصاحب التحرير:

(هي دابة كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يركبونها).

وهذا الذي قالاه من اشتراك جميع الأنبياء فيها يحتاج إلى نقل صحيح.

قال ابن دريد:

(١) هذا الوجه كان تعليقًا على روايات في صحيح مسلم تذكر أن الرسول ﷺ رأى موسى هابطًا من الثنية وله جؤار إلى الله بالتلبية، ورأى يونس وهو يلبي ورأى المسيح وهو يطوف بالبيت.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، ج٢ ، ص ٢١٠

اشتقاق البـراق من البرق إن شاء الله تعالى، يعني لسرعـته، وقيل: سمي بذلك لشدة صفائه وتلألئه وبريقه، وقيل لكونه أبيض.

قال القاضي:

يحتمل أنه سمي بذلك لكونه ذا لونين، يقال: شاة برقاء إذا كان في خلال صوفها الأبيض طاقات سود.

قال: ووصف في الحـديث بأنه أبيض، وقـد يكون من نوع الشاة البـرقاء وهي معدودة في البيض. والله أعلم.

ثم قال النووي:

وفي ربط البراق الأخذ بالاحتيـاط في الأمور، وتعاطي الأسباب وأن ذلك لا يقدح في التوكل إذا كان الاعتماد على الله تعالى. والله أعلم.

٤- المرآة الإلهية:

عندما حدَّث الـرسول ﷺ بما رأى أنكر عليه المشركـون وذهبوا مذاهب شتى وطلبوا آيات تدل على صدق المصطفى.

وأول ما يتبادر إلى الذهن التساؤل عن بيت المقدس، ويوجد بينهم من لديه المعرفة بهذا المكان المقدس.

ماذا سأل المشركون؟

ما موقف الرسول الأمين ﷺ ؟

وهل لحظات عابرة من الزمن اكـتنفتها آيات قـدسية متـعددة تكفي لتلفت النظر إلى مداخل البيت ودقائقه؟!

إن العـقل والقلـب في هذه اللحظات، غـمـرته آفـاق عـليـا من التـأمل والمناجاة، فهل يتلفت النظر إلى مبنى أو بناء؟!

مهما يكن من أمر فلنضع أمام أعيننا هذا النص الشريف:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «لقد رأيتني في الحجر، وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط.

قال: فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به».

وفي رواية عن جابر بن عبد الله: إن رسول الله ﷺ قال: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر، فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه».

٥- أنهار الجنة:

جاء في صحيح مسلم «أن نبي الله ﷺ حدث أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت يا جبريل ما هذه الأنهار قال أما النهران الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات».

* * *

الماء من أجل نعم الله تعالى على عباده في الدنيا والآخرة، وقد امتن الله علينا بالماء المبارك الذي ينزل مطرًا من السماء فيمكث في الأرض وينتفع به العباد.. قال الله تعالى. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[1].

وحكى القرآن المجيد أن الكافر يوم القيامة يتمنى شربة ماء لا تتحقق له ولا ينالها جزاء كفره.. فقال: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[2].

فالماء أرخص موجود وأعز مفقود، فإذا وجد الماء كان رخيصًا يتساهل الناس فيه وإذا فقد الماء كان أغلى شيء وأعزه..

---

(١) سورة المؤمنون: ١٨ - ١٩.
(٢) سورة الأعراف: ٥٠ - ٥١.

وأول نعمة امتن الله بها على عباده في أنهار الجنة نهر الماء فقدمه على اللبن والخمر والعسل فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[1].

والحديث الذي معنا يدل على بركة ماء النيل والفرات وشدة العذوبة فيهما تشبيها لهما بأنهار الجنة..

وما ورد في الأحاديث من أن النبي ﷺ رأى هذين النهرين النيل والفرات عند سدرة المنتهى أو في السماء الدنيا أو يخرجان من أصل الجنة فمحمول على المجاز والتشبيه..

كما أن في ذكر النيل والفرات حينئذ ليلة الإسراء والمعراج وقت الشدة التي كان فيها المسلمون خلال عهدهم المكي - بشرى إلهية بأن الإسلام سيدخل مصر والعراق ومنها ينتشر إلى آفاق الدنيا لتردد كلمة التوحيد في قلبها ولسانها «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

٦- فطرة الإسلام:

جاء في صحيح مسلم في حديث الإسراء والمعراج: **«ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل ﷺ: اخترت الفطرة».**

من مشاهد الإسراء والمعراج أنه عقب صلاة ركعتين في بيت المقدس أتى جبريل الأمين بإناءين في أحدهما خمر وفي الآخر لبن، وعرضهما على رسول الله ﷺ فاختار الصادق الأمين إناء اللبن وشرب منه، فكان ذلك إيحاء ورمزًا إلى الفطرة السوية التي استقام عليها رسول الله ﷺ وتستقيم عليها أمة الإسلام استمساكًا بالقرآن واعتصامًا بحبل الله المتين..

وقد تكرر هذا الموقف عند البيت المعمور في السماء السابعة حين أُتي بإناءين، أحدهما خمر والآخر لبن وعرضا على رسول الله ﷺ فاختار اللبن،

(١) سورة محمد : ١٥ .

فقيل له: أصبت، أصاب الله بك، أمتك على الفطرة.

والمعنى أصبت الفطرة وأراد الله بك الخير والفضل، ومعنى قوله: «أمتك على الفطرة» أن أمة الإسلام تبع لرسولها ﷺ تكون على فطرة التوحيد والطهر والنقاء والعفاف والشرف وكرائم الأخلاق..

والإشارة بالخمر واللبن لها دلالتها، فالخمر أم الخبائث فإذا لجأ إليها إنسان وأدمنها ألف كل شر وارتكب كل منكر وهانت عليه كل قيمة وضاع منه كل شرف.

واللبن سائغ للشاربين، سهل، طيب، طاهر، غذاء كامل..، وقد ضرب الله تعالى العبرة في اللبن وجعله آية من آيات الله تستحق التأمل والتعمق والبحث فقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾[1].

قال الإمام الزمخشري في تفسير هذه الآية: أي يخلق الله اللبن وسيطا بين الفرث (أي الروث) والدم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة بل هو خالص من ذلك كله، قيل إذا أكلت البهيمة العلف فاستقر في كرشها طبخته، فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما، والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاث تقسمها فتُجرى الدم في العرق واللبن في الضروع وتُبقى الفرث في الكرش، فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل.

هذا وقد ضرب باللبن المثل في الدين والعلم حتى إن من رأى رؤيا فيها لبن فقد رأى خيراً عظيمًا، وفي صحيح الحديث قال رسول الله ﷺ: «**بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى إني لأرى الرِي يخرج من أظفاري ثم أعطيت فضلي عمر، قالوا فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم**» فالرسول ﷺ فسر اللبن بالعلم في كثرة الانتفاع بهما.

(١) سورة النحل: ٦٦ .

إسراء المسلم ومعراجه

إن الإسراء في اللغة هو السير ليلاً، والمعراج هو السُّلَّم، وشأن المسلم أن يكون له إسراء إلى الله ومعراج إليه سبحانه.

وإسراء المسلم يتحقق بقيام الليل والتهجد والمناجاة في وقت السحر، حيث يسكن الكون، ويطيب الدعاء، ويتجلى الله على عباده، فيغتنم المسلم هذه الفرصة للقرب من ربه عز وجل.

قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1].

وتحدثنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن قيام الرسول ﷺ، عندما سئلت عن ذلك فقالت، كما في صحيح مسلم: ألست تقرأ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾؟

فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرًا في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعًا بعد فريضة.

ثم سئلت عائشة عن وتر رسول الله ﷺ فقالت: «كنا نعد له سواكه وطهوره فيبعثه الله ما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك ويتوضأ ويصلي تسع ركعات لا يجلس فيها إلا في الثامنة، فيذكر الله ويحمده ويدعوه، ثم ينهض ولا يسلم، ثم يقوم فيصلي التاسعة، ثم يقعد فيذكر الله ويحمده ويدعوه، ثم يسلم تسليمًا يسمعنا، ثم يصلي ركعتين بعدما يسلم وهو قاعد، فتلك إحدى عشرة ركعة.

فلما أسنَّ نبي الله ﷺ وأخذ اللحم أوتر بسبع، وصنع في الركعتين مثل

(١) سورة السجدة، الآيتان ١٥ و ١٦ .

صنيعه الأول، فتلك تسع.

وكان نبي الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا غلبه نوم أو وجع عن قيام الليل صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة.

ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا صلى ليلة إلى الصبح، ولا صام شهرًا كاملاً غير رمضان».

وجاءت كيفيات أخرى لصلاة الليل منها ما رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن صلاة الليل فقال: «**صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خشى أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة توتر له ما قد صلى**».

وفي روايات أخرى أن صلاة الليل أربع ركعات ثم أربع ركعات ثم ثلاث.. وفي ذلك سعة للمسلم يؤدي ما يراه مناسبًا لحاله..

هكذا يكون إسراء المسلم إلى الله.

أما المعراج فهو صالح الأعمال.. قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(١).

فالكلم الطيب هو التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل.. إلخ.

وهناك حديث شريف ختم به البخاري صحيحه يقول: «**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**».

وهذا الكلم الطيب إنما يرفعه الله تعالى متى استقام السلوك، وأُدِّيت الفرائض، والتزمت الجوارح بخشية الله في السر والعلانية.

وخير ما ينمي هذه الرابطة المقدسة في حياة المسلم هو الحفاظ على مواقيت الصلاة، فهي الفريضة الوحيدة التي فرضت في الملإ الأعلى ليلة الإسراء

---

(١) سورة فاطر، الآية ١٠

والمعراج، وهي الركن اليـومي الذي لا يسقط بحال من الأحوال مـا دام الإنسان عاقلاً، فهي تؤدى مع الصحة والمرض، وتؤدى مع الإقامة والسفر.

ولكن بكيفيات مختلفة تيسيرًا من الله ورحمة بعباده.

فهناك الصلاة من قيام أو جلوس أو اضطجاع.

وهناك الصلاة إتمامًا أو قصرًا.

وهناك الصلاة في مواقيتها أو جمعها جمع تقديم أو تأخير.

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[١].

وتوزيع الصلاة على الـيوم والليلة له حكم جليلة، فـالمسلم يستفـتح يومه بالذي هو خيـر فيؤدي صلاة الفجـر شكرًا لله الذي أحياه بعد أن أمـاته، فالنوم يشبه الموت.

ودعاء إلى الله أن يهيئ له من أمره رشدًا.

ثم يمارس الإنسـان نشاطه ويذهب إلى عـمله وهو طاهر النفس، منشـرح الصدر، مراقب لحدود الله.

وخلال انهماكه في مطالب الحياة اليومية يسمع صوت المؤذن لصلاة الظهر، فيهـرع لإجابة النداء، ويقف أمام الخالق الأعظم يتزود بخـير الزاد، ويمتلئ طهرًا ونقاءً.

ثم يعاود إتمام أعـماله وواجبـات وظائفه في هذه الحيـاة، وقد يصادفـه ما يشغله عن التفكر في آلاء الله، أو قد يعتريه خطأ أو خطيـئة فيفاجأ بصوت الحق مناديًا لصلاة العصر فيغتنمها فرصة ذهبية ليجدد العهد وفاء للدين والقيم.

ثم يخرج من صلاته ليواصل رحلته اليومية، وقد يعتريه من عناء العمل أو مغـريات الحياة مـا يشده بعيدًا عـن آفاق الإيمان العليا، هنا يجـد أن نداء الفلاح

---

(١) سورة الحج، الآية ٧٨

وأذان المغـرب قـد حان فـيلجأ إلـى الله في ضراعـة وخـشـوع ويؤدي صـلاة المغرب.

ثم في نهاية يومه يختمه -كـما بدأه- بشكر الله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وبدعائه إلى المولى أن يمنحـه غدًا مشرقًا بالرجاء، فيـصلي صلاة العشاء ويأوي إلى فراشه قائلاً:

بسم الله. سـبحـانك اللهم ربي، بك وضعت جنبـي وبك أرفعـه، أعوذ بكلمات الله التامات من شر كل شيطان وهامة، ومن شر كل عين لامة.

اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، وفوضت أمرى إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك.

آمنت بكتابك الذي أنزلت وبرسولك الذي أرسلت.

اللهم إن أمسكت نفسي فاغفر لها.

وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين.

وهكذا يظل المسلم على اتصال دائم بالله ومراقـبة لحدوده، وقد صور هذا المعنى سيدنا رسول الله ﷺ في قوله، كما في صحيح البخاري:

«أرأيتم لو أن نهراً بباب أحـدكم يغتسل منه كل يوم خمسًا مـا تقول ذلك يبقى من درنه؟! قالوا: لا يبقي من درنه شيئًا.

قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا».

* * *



البحث الثالث

شعائر الله

- العمرة.
- الحج.
- خطب الوداع.
- رفقًا بضيوف الرحمن.



العمرة

في صحيح مسلم أن أنسًا ؓ أخبر: «أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهنّ في ذي القعدة إلا التي مع حجته:

عمرة من الحديبية أو زمن الحديبية في ذي القعدة.

وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة.

وعمرة من جعرانة حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة.

وعمرة مع حجته».

من هذه الرواية عن أنس يتبين أنه عدّ عمرات النبي ﷺ أربعًا على أساس أن عمرة الحديبية التي صدّه المشركون عنها قد حسبت، فالنبي ﷺ والمسلمون قد نووها ثم حوصروا فتحللوا منها، ونية المؤمن أبلغ من عمله[1].

والعمرة الثانية يسميها العلماء عمرة القضاء أو عمرة القصاص، فالتسمية الأولى باعتبارها قضاء عن عمرة الحديبية، والتسمية الثانية باعتبارها قصاصًا عن صدّ المشركين للنبي ﷺ وصحبه، وفيها نزل قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾[2].

وكان موقفًا مشهودًا حين دخل النبي ﷺ والمسلمون مكة بعد سبع سنين طوال، وتجمع الرجال والنساء والصبيان في مكة وتزاحموا ليروا هذا النبي القائد يحيط به المهاجرون والأنصار، وأثار هذا التجمع الحسد والبغض والغيظ لدى بعض أئمة الكفر، فخرجوا إلى الجبال حتى لا يروا هذا الموقف العظيم، وتناقل بعض المغرضين أخبارًا كاذبة عن أحوال المسلمين، وزعموا أن حمى يثرب وهنتهم، وأنهم أصابهم الهزال والضعف.

(١) سبق تفصيل هذا الموقف في البحث الأول.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٩٤ .

فلما دخل الرسول ﷺ المسجد اضطبع[١] بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: «رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة».

ثم استلم الحجر الأسود وخرج يهرول ويهرول معه أصحابه، حتى إذا واراه البيت من المشركين المحدقين به واستلم الركن اليماني مشى حتى الحجر الأسود.

ثم هرول كذلك ثلاثة أشواط ومشى سائرها.

واختلف الفقهاء في حكم الهرولة في الطواف:

فيرى ابن عباس أن الهرولة في الطواف ليست سنة وإنما فعلها النبي ﷺ إظهاراً لقوة المسلمين أمام أعدائهم.

وفي صحيح مسلم عن أبي الطفيل قال:

(قلت لابن عباس: أرأيت هذا الرمل[٢] بالبيت ثلاثة أطواف ومشى أربعة أطواف، أسنة هو؟! فإن قومك يزعمون أنه سنة.

قال: صدقوا وكذبوا.

قلت: ما قولك صدقوا وكذبوا؟!

قال: إن رسول الله ﷺ قدم مكة فقال المشركون: إن محمداً وأصحابه لا يستطيعون أن يطوفوا بالبيت من الهزال، وكانوا يحسدونه، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يرملوا ثلاثًا ويمشوا أربعًا.

قلت له: أخبرني عن الطواف بين الصفا والمروة راكبًا أسنة هو؟! فإن قومك يزعمون أنه سنة.

قال: صدقوا وكذبوا.

قلت: وما قولك صدقوا وكذبوا؟!

قال: إن رسول الله ﷺ كثر عليه الناس يقولون: هذا محمد. هذا

---

(١) الاضطباع هو أن يجعل وسط ردائه تحت عاتقه الأيمن، ويجعل طرفيه على عاتقه الأيسر ويكون منكبه الأيمن مكشوفًا.

(٢) الرمل والخبب بمعنى واحد وهو إسراع المشي مع تقارب الخطى ولا يثب وثبًا.

محمد، حتى خرج العواتق[1] من البيوت. وكان رسول الله ﷺ لا يضرب الناس بين يديه، فلما كثر عليه ركب.

والمشي والسعي أفضل).

وكثير من العلماء يرون سنية الرمل في الأطواف الثلاثة الأولى من الحَجَر إلى الحجر، لأن النبي ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع وقال: «خذوا عني مناسككم»، وما حكاه ابن عباس هو موقف سابق على ذلك فيكون منسوخًا.

العمرة الثالثة هي عمرة الجعرانة في ذي القعدة من العام الثامن، وذلك أن النبي ﷺ بعدما فتح مكة في رمضان حدث أن جمعت قبيلة هوازن جيشًا كبيرًا لمطاردة المسلمين وملاحقة النصر المؤزر الذي توج جهاد المسلمين.

وعرف هذا اليوم في تاريخ السيرة بيوم حنين، وقصته مشهورة في القرآن والسنة.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[2].

وشاهت وجوه الكفار، وغنم المسلمون غنائم كثيرة، ولما انهزم المشركون أتوا الطائف وعسكر بعضهم بأوطاس، فسار إليهم الرسول ﷺ بنفسه، وحاصرهم، ثم واصل مسيرته الطاهرة المطهرة إلى الطائف، وقاتل بنفسه، وكان أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق، رمى به أهل الطائف. وخلال عودته عسكر بالجعرانة ومعه السبي والغنائم وحصلت عندئذ عملية التقسيم بين المجاهدين، وخرج الرسول ﷺ من الجعرانة ليلاً معتمرًا، فدخل مكة وقضى عمرته ثم أصبح بين أصحابه بالجعرانة، ولذا خفيت هذه العمرة على كثير من الناس حتى أنكرها ابن عمر.

---

(١) جمع عاتق، وهي البكر البالغة أو المقاربة للبلوغ..

(٢) سورة التوبة، الآيتان ٢٥ و ٢٦.

العمرة الرابعة هي التي أداها الرسول ﷺ مع حجة الوداع.

وهناك خلاف بين العلماء: هل كان الرسول مفردًا أو قارنًا؟

والصواب -كما قال النووي[1]:- أن النبي ﷺ كان مفردًا في أول إحرامه ثم أحرم بالعمرة فصار قارنًا.

والملاحظ على هذه العمرات للنبي ﷺ :

أولاً: أنها وقعت في ذي القعدة، حتى العمرة التي كانت مع حجة الوداع نواها في ذي القعدة وأداها في ذي الحجة، أي أنها كلها وقعت في أشهر الحج.

وفي ذلك مخالفة لأهل الجاهلية الذين يرون العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور.

وهناك رواية عن ابن عمر يذهب فيها إلى أن النبي ﷺ اعتمر واحدة في رجب، وقد أنكرها العلماء، كما ردتها السيدة عائشة رضي الله عنها.

وفي صحيح مسلم عن عروة بن الزبير قال:

(كنت أنا وابن عمر مستندين إلى حجرة عائشة، وإنا لنسمع ضربها بالسواك تستن.

فقلت: يا أبا عبد الرحمن اعتمر النبي ﷺ في رجب؟

قال: نعم.

فقلت لعائشة: أي أمتاه ألا تسمعين ما يقول أبو عبد الرحمن؟

قالت: وما يقول؟

قلت: يقول اعتمر النبي ﷺ في رجب.

فقالت: يغفر الله لأبي عبد الرحمن، لعمري ما اعتمر في رجب وما اعتمر من عمرة إلا وإنه لمعه.

قال: وابن عمر يسمع فما قال لا، ولا نعم، سكت).

هذا وربما يتساءل البعض: لماذا لم يعتمر الرسول ﷺ في رمضان، مع

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، ج٨، ص ٢٣٥ .

ما للعمرة فيه من شأن خاص؟

ففي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار: **«ما منعك أن تحجي معنا؟»**

قالت: لم يكن لنا إلا ناضحان[١]، فحج أبو ولدها وابنها على ناضح، وترك لنا ناضحًا ننضح عليه.

قال: **«فإذا جاء رمضان فاعتمري فإن عمرة فيه تعدل حجة»**.

والجواب- كما قال ابن القيم[٢] في أحد رأييه- أن رسول الله ﷺ كان يشتغل في رمضان من العبادات بما هو أهم من العمرة، ولم يكن يمكنه الجمع بين تلك العبادات وبين العمرة، فأخر العمرة إلى أشهر الحج، ووفر نفسه على تلك العبادات في رمضان، مع ما في ترك ذلك من الرحمة بأمته والرأفة بهم، فإنه لو اعتمر في رمضان لبادرت الأمة إلى ذلك، وكان يشق عليها الجمع بين العمرة والصوم، وربما لا تسمح أكثر النفوس بالفطر في هذه العبادة حرصًا على تحصيل العمرة وصوم رمضان فتحصل المشقة فأخرها إلى أشهر الحج، وقد كان يترك كثيرًا من العمل وهو يحب أن يعمله خشية المشقة عليهم.

ثانيًا: لم يعتمر النبي ﷺ في سنة مرتين.

ولهذا قال مالك: يكره أن يعتمر في السنة أكثر من عمرة، وجمهور العلماء على استحباب تكرار العمرة في السنة الواحدة، لأنها طاعة يتقرب بها إلى الله تعالى، وليس لها ميقات زماني، وهي ارتياد لمواضع الخير وبقاع الطهر، ولم يرد نص يمنع من ذلك.

واستدل بعضهم بالحديث الصحيح: **«العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»**.

---

(١) الناضح: هو البعير يستقى عليه الماء.

(٢) زاد المعاد، ج١ ، ص ١٧٣

فهذا الحديث دليل على التفريق بين الحج والعمرة في التكرار، إذ لو كانت العمرة كالحج لا تفعل في السنة إلا مرة لسوى بينهما في الجزاء.

وثبت أن عائشة اعتمرت مرتين في شهر، ويذكر أن عليًّا كان يعتمر في السنة مرارًا، وأن أنسًا كان إذا جم رأسه (ذهب إعياؤها) خرج فاعتمر.

ثالثًا: إن عمرات النبي ﷺ كانت وهو داخل إلى مكة، ولم ينقل عنه ﷺ أنه اعتمر وهو مقيم في مكة، ولم يفعل ذلك أحد من الصحابة على عهده، إلا عائشة ﵂ في حجة الوداع.

فقد أهلت بالعمرة فحاضت، فأمرها الرسول ﷺ أن تقرن الحج بالعمرة، فحدثتها نفسها: كيف ترجع صواحبها بحج وعمرة مستقلين، فإنهنّ كنّ متمتعات ولم يحضن ولم يقرنّ، وترجع هي بعمرة ضمن حجتها؟!

فاستفتت الرسول ﷺ، فأشار عليها أن تخرج مع أخيها عبد الرحمن ابن أبي بكر إلى التنعيم وتحرم بعمرة وتؤديها مستقلة بعد الحج.

وفي صحيح مسلم عن عائشة ﵂ أنها قالت: (خرجنا مع رسول الله ﷺ وسلم عام حجة الوداع فأهللنا بعمرة.

ثم قال رسول الله ﷺ: **«من كان معه هدي فليهلل بالحج مع العمرة ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعًا»**.

قالت: فقدمت مكة وأنا حائض ولم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: **«انقضى رأسك وامتشطى وأهلي بالحج ودعى العمرة»**.

قالت: ففعلت، فلما قضينا الحج أرسلني رسول الله ﷺ مع عبد الرحمن بن أبي بكر إلى التنعيم فاعتمرت، فقال: **«هذه مكان عمرتك»**.

فطاف الذين أهلوا بالعمرة بالبيت والصفا ثم حلوا ثم طافوا طوافًا آخر بعد أن رجعوا من منى لحجهم. وأما الذين كانوا جمعوا الحج والعمرة فإنما طافوا طوافًا واحدًا).

من هنا قال العلماء - كما حكى النووي[1]-:

من كان بمكة وأراد العمرة فميقاته لها أدنى الحل، ولا يجوز أن يحرم بها من الحرم، فإن خالف وأحرم بها من الحرم وخرج إلى الحل قبل الطواف أجزأه ولا دم عليه.

وإن لم يخرج وطاف وسعي وحلق، ففيه قولان، أحدهما: لا تصح عمرته حتى يخرج إلى الحل ثم يطوف ويسعى ويحلق. والثاني -وهو الأصح- يصح وعليه دم لتركه الميقات.

قال العلماء: وإنما وجب الخروج إلى الحل ليجمع في نسكه بين الحل والحرم، كما أن الحاج يجمع بينهما فإنه يقف بعرفات وهي في الحل ثم يدخل مكة للطواف وغيره.

هذا تفصيل مذهب الشافعي.

وهكذا قال جمهور العلماء إنه يجب الخروج لإحرام العمرة إلى أدنى الحل، وإنه لو أحرم بها في الحرم ولم يخرج لزمه دم.

وقال عطاء: لا شيء عليه.

وقال مالك: لا يجزئه حتى يخرج إلى الحل. قال القاضي عياض: وقال مالك: لابد من إحرامه من التنعيم خاصة.

قالوا: وهو ميقات المعتمرين من مكة.

وهذا شاذ مردود.

والذي عليه الجماهير أن جميع جهات الحل سواء ولا تختص بالتنعيم، والله أعلم. اهـ.

بقي أن ننبه إلى الفرق بين الحج والعمرة:

- الحج أحد أركان الإسلام.

والعمرة واجبة عند جمهور العلماء ويرى البعض أنها سنة.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، ج٨، ص ١٥١

- الحج يختص بميقات زماني هو شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة. قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾[(١)].

أما العمرة فهي جائزة في جميع السنة، وتكره عند أبي حنيفة في خمسة أيام هي: يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق الثلاثة.

- يختص الحج بالوقوف بعرفة يوم التاسع من ذي الحجة ويرمي الجمار، ولا شيء من ذلك في العمرة.

- يلتقي الحج مع العمرة في الإحرام والطواف والسعي والحلق أو التقصير واجتناب محرمات الإحرام من لبس المخيط وقتل الصيد وعقد النكاح... إلخ.

وكذلك يلتقيان في الاستطاعة والآداب العامة.

ففي صحيح مسلم عن ابن عمر:

(أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبر ثلاثًا ثم قال: **«سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين،إنا إلى ربنا لمنقلبون.**

اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البرّ والتقوى ومن العمل ما ترضى.

اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا واطو عنا بُعده.

اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل.

اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل».

وإذا رجع قالهنّ وزاد فيهنّ:

«آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون».

* * *

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٧ .

الحـــج

في البداية يجب أن نـعي أمورًا تتصل بالعـقيدة، وهي أن الإنسـانية بدأت مؤمنة موحدة، تلتزم منهج الله الذي أتى على لسان آدم أبي البشر.

ثم توالت الرسالات الإلهـية توضح الحق وطرائق الخير كلمـا تباعد الناس وتشاغلوا بمتع الحياة الرخـيصة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1].

ومن المقطوع به أن المنطقـة العربية ومكة على وجـه الخصوص قـد عرفت شريعة إبراهيم وإسمـاعيل عليهما السلام، قـال الله سبحانه: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[2].

ومع تطاول الزمن وتباعد العهد بـدأ الناس يبتدعون في دين الله، وأغوتهم الشيـاطين، فحرّفـوا وبدّلوا، فوضع العـرب الأصنام في جوف الكعـبة، وطاف البعض منهم وهم عـراة، وحرّموا على أنفـسهم مآكل ومـشارب قدمـوا بها من خارج الحرم، ومنـعوا المحرم أن يدخل داره من بابها المعـتاد، وغير ذلك كـثير، فلما جـاء الإسلام محا آثار الجـاهلية، فحطم الأصنام وأصبح المبـدأ الإسلامي: «لا يطوفُ بالبيت عريان»، وقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

فـالحج تشريع إلهي على لسـان رسل الله، وليس بدعـة اختـرعهـا الوهم العربي في جاهليته كما يتصور الحاقدون.

---

(١) سورة فاطر، الآية ٢٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٢٥.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٨٩.

وللحج حكمة بالغة تعجز أقلام الباحثين عن الإحاطة بها، ويكفي فيها على المستوى الفردي: التجرد من حطام الدنيا، والإخلاص لله وحده، وصفاء القلب، واستشعار الملأ الأعلى.

وعلى المستوى العام : التعارف الإسلامي، والتقاء قادة المسلمين على كلمة سواء هي لبيك اللهم لبيك.

وقد فرض الحج على المسلمين في العام السادس من الهجرة، وكان المسلمون يحجون مع المشركين إلى أن نزل قوله تعالى في العام التاسع: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1] .

وفي يوم مشهود من أيام الله خرج رسول الله ﷺ في العام العاشر من الهجرة ومعه مائة ألف أو يزيدون يؤدون مناسك الحج، بعد أن أصبحت مكة في حمى المسلمين، وبعد أن طهرت الكعبة من الأصنام، وبعد أن محيت آثار الجاهلية كلها.

وقال ﷺ لأصحابه: «**خذوا عني مناسككم**».

وخطبهم خطبة جامعة حدّدت ملامح المجتمع الإسلامي، وتوصف هذه الحجة وتلك الخطبة بأوصاف البلاغ والإسلام والوداع.

أما أنها حجة البلاغ فلأن الرسول ﷺ كان يقول عقب كل أمر أو نهي في خطبته: ألا هل بلغت؟!

فيقول الجمع الحاشد: نعم.

فيقول الرسول الكريم ﷺ : اللهم فاشهد.

وأما أنها حجة الإسلام فلأنها الحجة الوحيدة التي أداها الرسول ﷺ في

---

(١) سورة التوبة، الآية ٢٨ .

الإسلام بعد فرضية الحج. وفي صحيح البخاري سئل أنس رضي الله عنه: كم حج النبي ﷺ؟ قال: واحدة.

ولا يمنع من ذلك أن يكون الرسول ﷺ حج قبل البعثة أو حج قبل الهجرة فإنه ﷺ كان يلقى الناس في مواسم الحج يعرض عليهم الإسلام.

وأما أنها حجة الوداع فلأن الرسول ﷺ ودّع أمته قائلاً: «**أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا**».

وقد انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بعد عودته إلى المدينة بقليل.

ولكي نقف على وصف تقريبي لتلك الرحلة المباركة فهناك حديث شريف رواه جابر رضي الله عنه، وانفرد به مسلم، واعتبره العلماء حديثًا عظيمًا اشتمل على فوائد ونفائس، وتكلموا على ما فيه من فقه، وصنفوا فيه صحائف طويلة.

وها نحن نسوقه مع مقتطفات من شرح النووي عليه[1].

إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين[2] لم يحج، ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله.

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع؟

قال: «**اغتسلي واستثفري بثوب وأحرمي**»[3] فصلى رسول الله ﷺ في المسجد ثم ركب القصواء حتى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكب وماش. وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك،

---

(١) ج٨، ص ١٧٠.

(٢) يعني مكث بالمدينة بعد الهجرة.

(٣) فيه صحة إحرام النفساء والحائض، واستحباب غسلها، والاستثفار هو أن تشد في وسطها شيئًا وتأخذ خرقة تجعلها على محل الدم وتشد طرفيها من الأمام والخلف في ذلك المشدود في وسطها.

ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به، فأهل بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

وأهلّ الناس بهذا الذي يهلون به[١] فلم يرد رسول الله ﷺ شيئًا منه، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته.

قال جابر رضي الله عنه:

لسنا ننوى إلا الحج، لسنا نعرف العمرة[٢]، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثًا ومشى أربعًا[٣].

ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[٤]، فجعل المقام بينه وبين البيت. كان يقرأ في الركعتين: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾.

ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أبدأ بما بدأ الله به.

فبدأ بالصفا، فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

---

(١) إشارة إلى ما روي من زيادة الناس في التلبية من الثناء والذكر كما روى عن عمر أنه كان يزيد: (لبيك ذا النعماء والفضل، لبيك مرهوبًا منك ومرغوبًا إليك)، وعن ابن عمر: (لبيك وسعديك والخير بيدك)، وعن أنس: (لبيك حقًّا تعبدًا ورقًّا)، والمستحب عند أكثر العلماء الاقتصار على تلبية الرسول ﷺ.

(٢) فيه دليل لمن قال بترجيح الإفراد في الحج والمسألة خلافية.

(٣) الطواف في غير حج أو عمرة لا رمل فيه.

(٤) اختلف في ركعتي الطواف هل هما واجبتان أم سنتان وعلى كل لو تركهما لا يبطل الطواف، والسنة أن يصليهما خلف المقام وإلا ففي الحجر وإلا ففي المسجد، وإلا ففي مكة وسائر الحرم ولو صلاهما في وطنه جاز.

ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادى سعى[١] حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طوافه على المروة[٢] فقال: **«لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة؛ فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل وليجعلها عمرة»**.

فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله، ألعامنا هذا أم لأبد؟

فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى وقال: **«دخلت العمرة في الحج مرتين، لا بل لأبد أبد»**[٣].

وقدم عليّ من اليمن[٤] ببدن النبي ﷺ، فوجد فاطمة ؓ ممن حل، ولبست ثيابًا صبيغًا واكتحلت، فأنكر ذلك عليها[٥].

فقالت: إن أبي أمرني بهذا.

قال: فكان عليّ يقول بالعراق :

---

(١) في هذا الحديث استحباب السعي الشديد في بطن الوادي حتى يصعد ثم يمشي باقي المسافة، ولو مشى في الجميع أو سعى في الجميع أجزأه وفاتته الفضيلة، وعن مالك فيمن ترك السعي الشديد في موضعه روايتان إحداهما كما ذكر والثانية تجب عليه إعادته والآن أصبح المسعى كله في مستوى واحد وحدد مكان السعى الشديد بعلامتين معروفتين هناك.

(٢) هذا الحديث وعمل المسلمين على تعاقب الأزمان هو أن الذهاب إلى المروة مرة والرجوع إلى الصفا مرة ثانية ويرى البعض أن الذهاب والرجوع معًا مرة واحدة، ولا اعتداد به.

(٣) اختلف العلماء في معناه على أقوال أصحها أن العمرة يجوز فعلها في أشهر الحج إلى يوم القيامة، والمقصود به بيان إبطال ما كانت الجاهلية تزعمه من امتناع العمرة في أشهر الحج.

والثاني : معناه جواز القران، وتقدير الكلام دخلت أفعال العمرة في أفعال الحج إلى يوم القيامة.

والثالث: تأويل بعض القائلين: بأن العمرة ليست واجبة، قالوا ودخولها في الحج معناه سقوط وجوبها، وهذا ضعيف أو باطل وسياق الحديث يقتضي بطلانه.

الرابع: تأويل بعض أهل الظاهر أن معناه جواز فسخ الحج إلى العمرة وهذا أيضًا ضعيف.

(٤) كان علي في اليمن يلي جمع الزكاة واشترى للرسول بدنًا للهدى.

(٥) فيه إنكار الرجل على زوجته ما رآه منها من نقص في دينها لأنه ظن أن ذلك لا يجوز فأنكره.

فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشًا على فاطمة للذي صنعت، مستفتيًا لرسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه، فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها.

فقال: «**صدقت، صدقت، ماذا قلت حين فرضت الحج؟**»

قال (عليّ) قلت: اللهم إني أهلّ بما أهلّ به رسولك[١].

قال (الرسول ﷺ): «**فإن معي الهدى فلا تحل**».

فكان جماعة الهدى الذي قدم به عليّ من اليمن والذي آتى به النبي ﷺ مائة.

قال: فحلّ الناس كلهم[٢] وقصروا[٣] إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي.

فلما كان يوم التروية[٤] توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج، وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس[٥] وأمر بقبّة من شعر تضرب له بنمرة[٦] فسار رسول الله ﷺ،

(١) فيه صحة الإحرام معلقًا وهو أن يحرم إحرامًا لإحرام فلان فينعقد إحرامه ويصير محرمًا بما أحرم به فلان.

(٢) المراد معظم الناس لأن عائشة ﵂ لم تحل ولم تكن ممن ساق الهدي.

(٣) إنما قصروا ولم يحلقوا مع أن الحلق أفضل لأنهم أرادوا أن يبقى شعر يحلق في الحج فكان التقصير هنا أحسن ليحصل في النسكين إزالة شعر.

(٤) هو الثامن من ذي الحجة وسمى بذلك لأن الناس كانوا يتروون فيه من الماء أي يحملونه معهم من مكة إلى عرفات.

(٥) فيه مجموعة سنن:

- الأفضل عند الشافعي أن من كان بمكة وأراد الإحرام بالحج أحرم يوم التروية.
- من السنة أن لا يتقدم أحد إلى منى قبل يوم التروية.
- الركوب في تلك المواطن أفضل من المشي.
- الصلاة بمنى هذه الصلوات الخمس.
- المبيت بمنى ليلة التاسع من ذي الحجة.
- أن لا يخرج من منى حتى تطلع الشمس.

(٦) موضع بجنب عرفات وليس منها ومن السنة أن ينزل نمرة ولا يدخل عرفات إلا بعد زوال الشمس.

ولا تشك قـريش إلا أنه واقف عند المشعـر الحرام كمـا كانت قـريش تصنع في الجاهلية، فـأجاز رسول الله ﷺ، حتى أتى عـرفة فوجد القبـة قد ضربت له بنمرة[١].

حتى إذا زاغت الشمس أمر بـالقصواء فرحلت[٢] له، فأتى بطن الوادي[٣] فخطب[٤] الناس وقال:

«إن دماءكم وأمـوالكم حرام عليكم كحـرمة يومكم هذا، في شـهركم هذا، في بلدكم هذا.

ألا كل شيء في أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع[٥]، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل[٦].

---

(١) المشعر الحرام هو جـبل المزدلفة أو هو كل المزدلفة وهو من الحرم وكانت قـريش تقف بالمزدلفة ويقولون: نحن أهل حرم الله فلا نخرج منه، وكان سائر العرب يتجاوزون المزدلفة إلى عرفات.

وظنت قريش أن النبي ﷺ يقف في المشعر الحرام ولا يتجـاوزه، فتجاوزه النبي ﷺ إلى عرفات لأن الله تعالى أمره بذلك في قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي سائر العرب غير قريش.

(٢) جعل عليها الرحل.

(٣) وادي عرنة وليست من عرفات عند الشافعي والعلماء كافة إلا مالكًا فقال: هي من عرفات.

(٤) مذهـب الشافـعي أن في الحج أربع خطب مسنونة إحداها يوم السـابع من ذي الحجة يخطب عند الكعـبة بعد صلاة الظهر.

والثانية: هذه التي ببطن عرنة يوم عرفات.

والثالثة: يوم النحر، والرابعة: يوم النفر الأول وهو اليوم الثاني من أيام التشريق.

وكل هذه الخطب أفراد وبعد صـلاة الظهر إلا التي يوم عرفة فـإنها خطبتان وقبل الصـلاة، ويعلمهم في كل خطبة من هذه ما يحتاجون إليه إلي الخطبة الأخرى.

(٥) الوضع هو الرد والإبطال، والمراد إبطال أفعال الجـاهلية وبيوعها التي لم يتصل بهـا قبض وأنه لا قصاص في قتلها.

(٦) كان هذا الابن المقتول طفلاً صغيرًا يحبو بين البيوت فأصابه حجر في حرب كانت بين بني سعد وبني ليث بن بكر.

وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله[١].

فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان[٢] الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله[٣]، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه[٤] فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح[٥]، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله.

وأنتم تسألون عنى، فما أنتم قائلون؟»

قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت.

فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس:

«اللهم اشهد، اللهم اشهد، ثلاث مرات».

ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئًا[٦].

---

(١) أي الزائد على رأس المال لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾

(٢) في بعض النسخ بأمانة الله.

(٣) قيل: المراد بالكلمة كلمة التوحيد إذ لا تحل مسلمة لغير مسلم أو المراد بإباحة الله في قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾، أو المراد الإيجاب والقبول.

(٤) قيل: المراد بذلك لا يستخلين بالرجال، ولم يرد زناها لأن ذلك يوجب رجمها، ولأن ذلك حرام مع من يكرهه الزوج ومن لا يكرهه.

وقال القاضي عياض: كانت عادة العرب حديث الرجال مع النساء ولم يكن ذلك عيبًا ولا ريبة عندهم فلما نزلت آية الحجاب نهوا عن ذلك.

والمختار أن معناه أن لا يأذن لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم والجلوس في منازلكم سواء كان المأذون له رجلاً أجنبيًا أو امرأة أو أحدًا من محارم الزوجة، فالنهي يتناول جميع ذلك لأن الأصل تحريم دخول منزل الإنسان حتى يوجد الإذن منه أو ممن أذن له في الإذن أو عرف رضاه باطراد العرف.

(٥) المعنى ضربًا غير شديد ولا شاق.

(٦) فيه أن يشرع الجمع بين الظهر والعصر هناك في ذلك اليوم وقد أجمعت الأمة عليه واختلفوا في سببه، فقيل:=

ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل[١] المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص[٢]، وأردف أُسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مورك[٣] رحله، ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس، السكينة، السكينة»[٤].

= بسبب النسك وهو مذهب أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي.

وقال أكثر أصحاب الشافعي: هو بسبب السفر، فمن كان حاضرًا أو مسافرًا دون مرحلتين كأهل مكة لم يجز له الجمع، كما لا يجوز له القصر.

وفيه أن الجامع بين الصلاتين يصلى الأولى أولاً وأنه يؤذن للأولى وأنه يقيم لكل واحدة منهما وأنه لا يفرق بينهما، وهذا كله متفق عليه عند الشافعية.

(١) مجتمع المشاة.

(٢) فيه مسائل وآداب منها:

إذا فرغ من الصلاتين عجل الذهاب إلى الموقف، ومنها أن الوقوف راكبًا أفضل وفيه خلاف بين العلماء، ومنها أنه يستحب أن يقف عند الصخرات وهي صخرات مفترشات في أسفل جبل الرحمة، وهو الجبل الذي بوسط أرض عرفات. فهذا هو الموقف المستحب.

وأما ما اشتهر بين العوام من الاعتناء بصعود الجبل وتوهمهم أنه لا يصح الوقوف إلا فيه فغلط، بل الصواب جواز الوقوف في كل جزء من أرض عرفات وأن الفضيلة في موقف رسول الله ﷺ عند الصخرات.

ومنها استحباب استقبال الكعبة في الوقوف، ومنها أن يبقى في الوقوف حتى تغرب الشمس ويتحقق كمال غروبها ثم يفيض إلى مزدلفة، فلو أفاض قبل غروب الشمس صح وقوفه وحجه، ويجبر ذلك بدم، وهل الدم واجب أم مستحب؟ قولان للشافعي أصحهما أنه سنة، وهما مبنيان على أن الجمع بين الليل والنهار واجب على من وقف بالنهار أم لا؟ فيه قولان أصحهما أنه سنة.

أما وقت الوقوف فهو ما بين زوال الشمس يوم عرفة وطلوع الفجر يوم النحر.

هذا هو مذهب الشافعي وجماهير العلماء، وقال مالك: لا يصح الوقوف في النهار منفردًا، بل لابد من الليل وحده أو مع جزء من النهار، وقال أحمد: يدخل وقت الوقوف من الفجر يوم عرفة. وأجمعوا على أن أصل الوقوف ركن لا يصح الحج إلا به.

(٣) بفتح الميم وكسر الراء هو الموضع الذي يثنى الراكب رجله عليه قدام واسطة الرحل إذا مل من الركوب.

(٤) فيه أن الرفق والطمأنينة في الدفع من عرفات سنة فإذا وجد فرجة أسرع كما ثبت في حديث آخر.

كلما أتى حبلاً[١] من الحبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة[٢] فصلى بها المغرب والعشاء[٣] بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئًا[٤].

ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة[٥].

ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام[٦] فاستقبل القبلة، فدعاه وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفًا حتى أسفر جدًّا، فدفع قبل أن تطلع الشمس.

وأردف الفضل بن عباس، وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيمًا، فلما

---

(١) هو التل من الرمل.

(٢) سميت بذلك من التزلف والازدلاف وهو التقرب لأن الحجاج إذا أفاضوا من عرفات ازدلفوا إليها أي مضوا إليها وتقربوا منها، وقيل: لمجيء الناس إليها في زلف من الليل أي ساعات.

(٣) السنة للدافع من عرفات أن يؤخر المغرب إلى وقت العشاء بنية الجمع. لكن في مذهب الشافعي لو جمع بينهما في وقت المغرب في أرض عرفات أو في الطريق أو في موضع آخر أو صلى كل واحدة في وقتها جاز وهو خلاف الأفضل فقط. وقال أبو حنيفة: يشترط أن يصليهما بالمزدلفة ولا يجوز قبلها، وقال مالك: لا يجوز أن يصليهما قبل المزدلفة إلا من به أو بدابته عذر بشرط كونه بعد مغيب الشفق.

(٤) لم يصل بينهما نافلة، واختلفوا في الموالاة بين الصلاتين هل هي شرط للجمع أم لا؟ والصحيح أنها سنة في جمع التأخير، شرط في جمع التقديم.

(٥) المبيت بمزدلفة ليلة النحر بعد الدفع من عرفات نسك، وهذا مجمع عليه لكن اختلف العلماء هل هو واجب أم ركن أم سنة؟

والصحيح من قول الشافعي أنه واجب لو تركه أثم وصح حجه ولزمه دم.

والسنة أن يبقى بالمزدلفة حتى يصلي بها الصبح إلا الضعفة فالسنة لهم الدفع قبل الفجر.

وفي أقل المجزئ من هذا المبيت ثلاثة أقوال عند الشافعية، الصحيح ساعة في النصف الثاني من الليل، والثاني ساعة في النصف الثاني أو بعد الفجر قبل طلوع الشمس. والثالث معظم الليل.

(٦) المراد به هنا قزح وهو جبل معروف بالمزدلفة، والوقوف عليه من مناسك الحج، واختلفوا في وقت الدفع منه فقال جماهير العلماء: لا يزال واقفًا فيه يدعو ويذكر حتى يسفر الصبح جدًّا كما في الحديث، وقال مالك: يدفع منه قبل الإسفار.

دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن[١] يجرين فطفق الفضل ينظر إليهنّ فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل فحوَّل الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحوَّل رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر[٢].

حتى أتى بطن محسر[٣] فحرك قليلاً ثم سلك الطريق الوسطى[٤] التي تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة، فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها، مثل حصى الخذف، رمى من بطن الوادي[٥].

---

(١) بضم الظاء والعين ويجوز إسكان العين جمع ظعينة، وأصلها البعير الذي عليه المرأة ثم تسمى به المرأة مجازًا لملابستها البعير.

(٢) فيه الحث على غض البصر عن الأجنبيات وغضهن عن الرجال الأجانب، وفي رواية للترمذي وغيره في هذا الحديث أن النبي ﷺ لوى عنق الفضل فقال له العباس: لويت عنق ابن عمك؟ قال: رأيت شابًا وشابة فلم آمن الشيطان عليهما.

فهذا يدل على أن وضعه ﷺ يده علي وجه الفضل كان لدفع الفتنة عنه وعنها. وفيه أن من رأى منكرًا وأمكنه إزالته بيده لزمه إزالته.

(٣) بضم الميم وبفتح الحاء وكسر السين المشددة، سمى بذلك لأن فيل أصحاب الفيل حسر فيه أي أعيى وكل، ومن سنن المشي في هذا المكان الإسراع.

(٤) فيه أن سلوك هذا الطريق في الرجوع من عرفات سنة وهو غير الطريق الذي ذهب فيه إلى عرفات ليخالف الطريق تفاؤلاً بتغير الحال كما فعل ﷺ في دخول مكة حين دخلها من الثنية العليا وخرج من الثنية السفلى. وخرج إلى العيد في طريق ورجع في طريق آخر. وحول رداءه في الاستسقاء.

(٥) الجمرة الكبرى هي جمرة العقبة، والسنة للحاج إذا دفع من مزدلفة فوصل منى أن يبدأ بجمرة العقبة ولا يفعل شيئًا قبل رميها، وفيه أن الرمي بسبع حصيات وأن قدرهن بقدر حصى الخذف وهو نحو حبة الباقلاء فإن كان أكبر أو أصغر أجزاء بشرط كونها حجرًا.

ولا يجوز عند الشافعي والجمهور الرمي بالكحل والزرنيخ والذهب والفضة وغير ذلك مما لا يسمى حجرًا، وجوزه أبو حنيفة بكل ما كان من أجزاء الأرض.

ويسن التكبير مع كل حصاة ويجب التفريق بين الحصيات فيرميهن واحدة واحدة فإن رمى السبعة رمية واحدة حسب ذلك كله حصاة واحدة عند الجمهور.

والسنة أن يقف للرمي في بعض الوادي بحيث يكون منى وعرفات والمزدلفة عن يمينه ومكة عن يساره، وقيل: يقف مستقبل القبلة وكيفما رمى أجزاه.

=

ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثًا وستين بيده.

ثم أعطى عليًا فنحر ما غبر[١] وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة[٢] فجعلت في قدر فطبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها[٣].

ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت[٤] فصلى بمكة الظهر[٥] فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم فقال: «**انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم**».

فناولوه دلوًا فشرب منه[٦].

= والمشروع من الرمي يوم النحر هو رمي جمرة العقبة لا غير بإجماع المسلمين وهو واجب ليس بركن عند الشافعي فإن تركه حتى فاتته أيام الرمي عصى ولزمه دم وصح حجه وقال مالك: يفسد حجه.

(١) بقي.

(٢) البضعة بفتح الباء: هي القطعة من اللحم.

(٣) فيه مجموعة سنن: - المنحر موضع معين من منى، وحيث ذبح منها أو من الحرم أجزأه.
- تكثير الهدي. - ذبح المهدي هديه بنفسه وجواز الإنابة فيه.
- تعجيل ذبح الهدي وإن كانت كثيرة يوم النحر. - الأكل من هدي التطوع.

(٤) هذا الطواف هو طواف الإفاضة وهو ركن من أركان الحج وأول وقته عند الشافعية من نصف ليلة النحر، وأفضله بعد رمي جمرة العقبة وذبح الهدي والحلق ويكون ذلك ضحوة يوم النحر، ويجوز في جميع يوم النحر بلا كراهة، ولا يحرم تأخيره سنين متطاولة ولا آخر لوقته وشرطه أن يكون بعد الوقوف بعرفة.

وقد يسمى هذا الطواف طواف الزيارة، وطواف الفرض والركن.

(٥) ورد من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ أفاض يوم النحر فصلى الظهر بمنى ووجه الجمع بينهما أن النبي ﷺ طاف للإفاضة قبل الزوال ثم صلى الظهر بمكة في أول وقتها ثم رجع إلى منى فصلى بها الظهر مرة أخرى بأصحابه حين سألوه ذلك فيكون متنفلاً بالثانية.

وأما الحديث الوارد عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ أخر الزيارة يوم النحر إلى الليل فمحمول على أنه عاد للزيارة مع نسائه لا لطواف الإفاضة.

(٦) انزعوا -بكسر الزاي- معناه: استقوا بالدلاء، وانزعوها بالرشاء وفيه فضيلة العمل في هذا الاستسقاء، واستحباب شرب ماء زمزم.

وقوله: (لولا أن يغلبكم الناس) معناه: لولا خوفي أن يعتقد الناس ذلك من مناسك الحج ويزدحموا عليه بحيث يدفعونكم عن الاستسقاء لاستقيت معكم لكثرة فضيلة هذا العمل.

وسميت بئر زمزم بذلك لكثرة مائها وقيل غير ذلك.

خطب الوداع

خطب رسول ﷺ في حجة الوداع أكثر من خطبة، خطب يوم عرفة، وخطب يوم النحر، وخطب أيام التشريق بمنى.

وقد التقت هذه الخطب على أمور أساسية تحدد ملامح المجتمع الإسلامي، وتؤكد أهمية الأواصر الاجتماعية والترابط الأسري وحرمة الدماء والأعراض.

وقد رويت هذه الخطب بأكثر من رواية، فبعض الصحابة حفظها كلها، وبعضهم حفظ أجزاء مطولة منها، وبعضهم اعتنى بفقرات منها.

ولأهمية هذه الخطب أدّاها الرسول ﷺ واقفًا على ناقته.

وفي رواية لأحمد عن أبي أُمامة قال:

سمعت رسول الله ﷺ وهو -يومئذ على الجدعاء- واضع رجليه في الغرز، يتطاول ليسمع الناس، فقال بأعلى صوته: «**ألا تسمعون؟**»

فقال رجل من طوائف الناس: يا رسول الله، ماذا تعهد إلينا؟

فقال: «**اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا إذا أُمرتم تدخلوا جنة ربكم**».

ومع أن الموقف وسط هذه الصحراء كان حارًّا فإن الصحابة ﷺ اهتموا برسول الله ﷺ وأحاطوا به حرصًا على سماع كل كلمة، والاستجابة لكل إرشاد.

روى ابن إسحق: عن عمرو بن خارجة قال: بعثني عتاب بن أُسيد إلى رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة في حاجة، فبلغته ثم وقفت تحت ناقته، وإن

لعابها ليقع على رأسي فسمعته يقول: «**أيها الناس إن الله أدى إلى كل ذي حق حقه، وإنه لا تجوز وصية لوارث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة أجمعين، لا يقبل الله له صرفًا ولا عدلاً**».

وقد كان الرسول الكريم ﷺ يكرر النداء ثلاثًا.

روى النسائي عن سليمان بن عمرو عن أبيه قال:

شهدت رسول الله ﷺ في حجة الوداع يقول: «**أيها الناس ثلاث مرات، أي يوم هذا؟**» قالوا: يوم الحج الأكبر.. الحديث.

وجعل الرسول ﷺ أحد أصحابه - وهو ربيعة بن أُمية بن خلف -يردد للناس فقرات بعض خطبه.

وفي رواية لابن إسحق قال:

كان الرجل الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ وهو بعرفة ربيعة بن أُمية بن خلف، قال رسول الله ﷺ : «**قل أيها الناس إن رسول الله يقول: هل تدرون أي شهر هذا؟**

فيقولون: الشهر الحرام.

فيقول: قل لهم: إن الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة شهركم هذا.

ثم يقول: قل أيها الناس إن رسول الله يقول: هل تدرون أي بلد هذا...» الحديث.

من كل هذا وعاها الناس حق الوعي، ووصلت إلى الآذان والقلوب حيث كانت.

روى أبو داود عن عبد الرحمن بن معاذ التيمي قال:

(خطبنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى، ففتحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما

يقول ونحن في منازلنا، فطفق يعلمهم مناسكهم. . . الحديث).

ومما زاد وعي الناس بالخطبة والاهتمام بشأنها ما أكده الرسول ﷺ مراراً من أن هذا اللقاء الفريد قد لا يتكرر.

ففي الصحيح أن رسول الله ﷺ وقف عند جمرة العقبة وقال: «**خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا**».

وعندما نزلت الآية الكريمة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾[1].

وذلك يوم عرفة الذي صادف أن كان يوم جمعة، استشعر الناس وفاة النبي ﷺ، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بكى، فقيل: ما يبكيك، فقال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان.

وفي أوسط أيام التشريق نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ..﴾، فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع، وأدرك فقهاء الصحابة أنه أجل رسول الله ﷺ نعي إليه.

وخطب الوداع هذه تكررت فيها بعض الفقرات تأصيلاً لمبدئيتها وتأسيساً، وخاصة ما يتعلق بحق الأخوة العامة.

ففي صحيح البخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال:

«**يا أيها الناس، أي يوم هذا؟**» قالوا: يوم حرام.

قال: «**فأى بلد هذا؟**» قالوا: بلد حرام.

قال: «**فأى شهر هذا؟**» قالوا: شهر حرام.

قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في**

---

(١) سورة المائدة، الآية ٣ .

بلدكم هذا، في شهركم هذا».

قال ابن عباس: فأعادها مرارًا ثم رفع رأسه فقال:

«اللهم هل بلغت؟! اللهم قد بلغت».

قال ابن عباس: فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته: «فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

فشأن مجتمع المسلمين أن يعيشوا عباد الله إخوانًا، وأن يأمن الناس فيه على الحرمات، وأن تظل الأمانة -بمعناها العام- عنوانه الشريف وواقعه المعاش.

وفي رواية أخرى للبخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه توضح ما جال بخاطر المسلمين عندما سألهم الرسول ﷺ عن الزمان والمكان قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر فقال: «أتدرون أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه.

قال: «أليس هذا يوم النحر؟» قلنا: بلى.

قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم.

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه.

قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى.

قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم.

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه.

قال: «أليس بالبلد الحرام؟» قلنا: بلى.

قال: «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم.

ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم. قال: «اللهم اشهد.

فليبلغ الشاهد الغائب، فربَّ مبلَّغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفاراً

يضرب بعضكم رقاب بعض».

وقد أثبت حديث جابر الذي رواه مسلم عن حجة النبي ﷺ هذا الحق للأخوة العامة في خطبة يوم عرفة.

ثم محا رسول الله ﷺ آثار الجاهلية وما توارثه الناس من ظلماتها، فقال كما في حديث جابر في صحيح مسلم:

«ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل.

وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله».

وهكذا كان أهل بيت النبي ﷺ وقرابته أول الناس تطبيقًا للقانون، والتزامًا به، ووقوفًا عند حده.

ثم دعا الرسول ﷺ إلى يقظة الضمير، وصحوة العقل، بحيث لا يصر الإنسان على معصية، ولا يقيم على خطيئة، ولا يستصغر ذنبًا، فقال -كما في رواية النسائي-:

«ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم فيرضى».

وفي رواية لأحمد: **«ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكنه في التحريش بينكم».**

وفي رواية للبزار: **«أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يعبد ببلادكم آخر الزمان، وقد يرضى عنكم بمحقرات الأعمال، فاحذروه على دينكم بمحقرات الأعمال».**

ثم أكد الرسول ﷺ قيمة الوقت وحرمة الزمان، وخاصة تلك الأشهر الحرم التي أمر الله بتعظيمها، وجعلها واحات أمن وأمان، يفيء إليها الناس حين تشتد عليه وطأة الحياة المريرة.

ورفض الرسول ﷺ التلاعب بهذه الحرمات أو التحايل عليها بما كان يعرف في الجاهلية بالنسيء وهو تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر. . فقال كما في رواية أحمد عن أبي بكرة:

«ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان».

وفي بعض الروايات أن الرسول ﷺ قرأ هذه الآية:

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾[1].

وإنما قال ﷺ: «رجب مضر» ليبين صحة قول هذه القبيلة في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما تظنه قبيلة ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم.

ثم انتقل الرسول ﷺ إلى قضية اجتماعية مهمة، هي قضية العلاقات الأسرية، والحق والواجب في العلاقة الزوجية، فقال -كما في صحيح مسلم عن جابر: **«فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»**[2].

وأتت بعض الروايات بإرشاد نبوي كريم يتعلق بأمن الدولة واستقرار

---

(١) سورة التوبة، الآية ٣٧ .

(٢) سبق التعليق على هذه الرواية، في ص١٣٠ .

المجتمع، ألا وهو طاعة ولي الأمر في غير معصية.

ففي صحيح مسلم بسنده عن أم الحصين قالت:

(حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فرأيت أسامة وبلالاً أحدهما آخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ، والآخر رافع ثوبه يستره من الحر، حتى رمى جمرة العقبة..

قالت: فقال رسول الله ﷺ قولا كثيرًا، ثم سمعته يقول:

«إن أُمِّرَ عليكم عبد مجدع[1] -حسبتها قالت أسود- **يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا»**.

فالتمرد لا يولد إلا الفتنة، والفتنة لا تبقي ولا تذر، وما لجأ مجتمع إلى حمل السلاح في وجه الحاكم إلا اضطربت الأمور، وسادت الفوضى وتفككت العرى، وتربص الأعداء.

وأخيرًا توجه الرسول ﷺ بالنصيحة العامة الخالدة التي هي مناط عز المسلمين وسعادتهم إلى الأبد، فقال -كما في صحيح مسلم عن جابر:

«وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله».

فالقرآن المجيد يهدي للتي هي أقوم، وهو العروة الوثقى، وبه قامت الأمة والحضارة في الإسلام.

ولن تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

وقد تركنا رسول الله ﷺ على المحجة البيضاء ليلها كنهارها.

والأمر يحتاج إلى يقين المؤمنين، وجهاد الرجال، وعزيمة أولي الرشد، ولقد بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، ولكن وعد الله باستخلاف المؤمنين العاملين قائم، ولن يخلف الله وعده.

---

(١) في مختار الصحاح: الجدع قطع الأنف وقطع الأذن أيضًا وقطع اليد والشفة.

رفقًا بضيوف الرحمن

الحج مبنى على الاستطاعة البدنية، والمالية، بل شرع الله كله منوط بالاستطاعة، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[1].

ورفع الحرج ملاحظ في الدين، قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[2]، والتكاليف الإلهية مرتبطة بوسع الإنسان، قال جل شأنه: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[3].

والمتأمل في واقع الحج وأداء المسلمين اليوم يلحظ مدى العسر والمشقة والعنت الحاصل لدى جماهير الحجاج، وقد يفضي ذلك إلى إزهاق أرواح، وإتلاف أموال، وإهدار كرامة..

فمن الناس من يلقى مصرعه تحت أقدام الحجاج، ولا يستطيع أقرب الناس إليه إغاثته.

وتضيع أموال طائلة في ذبح الهدي، وتتلف ثروات حيوانية ضخمة لا ينتفع بها إنسان، ويكون مصيرها أن تحرق وتدس في التراب.

والجنس اللطيف يدخل في معركة غير متكافئة مع الرجال، وقد تهدر كرامات يغار عليها المسلم.

يفعل ذلك كله باسم الحج، والحج منه براء، ويقع ذلك كله باسم الطاعة والزلفى إلى الله.

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾[4].

---

(١) سورة التغابن، الآية ١٦.
(٢) سورة الحج، الآية ٧٨
(٣) سورة البقرة، الآية ٢٨٦
(٤) سورة الأعراف، الآية ٢٨

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[1].

وتأملاتي هذه تحكمني فيها نصوص دينية صحيحة وصريحة، أهمها:

١- في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال:

خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**يأيها الناس، قد فرض الحج عليكم فحجوا**» فقال رجل: كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها مرارًا، فقال رسول الله ﷺ: «**لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم. ثم قال: ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**».

فقاعدة ارتباط الأمر بالاستطاعة هي من قواعد الإسلام الأصيله.

٢- وفي صحيح مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: وقف رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه، فجاء رجل فقال: يا رسول الله، لم أشعر فحلقت قبل أن أنحر؟ فقال: «**اذبح ولا حرج**».

ثم جاءه رجل آخر فقال: يا رسول الله، لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي؟ فقال: «**ارم ولا حرج**».

قال: فما سئل رسول الله ﷺ عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: «**افعل ولا حرج**».

فالتيسير في الأحكام قاعدة أساسية في الحج.

٣- وفي صحيح البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى شيخًا يهادى بين ابنيه، قال: «**ما بال هذا؟**» قالوا: نذر أن يمشي إلى الكعبة، فقال ﷺ: «**إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني، وأمره أن يركب**».

فلم يشرع الحج عذابًا للناس أو تعذيبًا لخلق الله، وإنما هو رحلة روحية

---

(١) سورة الحج، الآية ٣٧ .

تشد المسلم إلى آفاق الإيمان العليا وتربطه بالملإ الأعلى.

٤- في صحيح البخاري بسنده عن ابن عباس: أنه دفع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجرًا شديدًا وضربًا للإبل، فأشار بسوطه إليهم وقال: **«أيها الناس، عليكم بالسكينة، فإن البر ليس بالإيضاع»**[١].

وهذا المبدأ لو عقله المسلمون اليوم لاستراحوا وأراحوا.

وعلى ضوء هذه المعالم الأساسية في الدين، وتلك النصوص الواردة في الحج،

وبملاحظة واقع المسلمين الحجاج اليوم وقد قارب عددهم ثلاثة ملايين، أرى -وأنا مطمئن- أن سلف علمائنا ﷺ لو عادوا وشاهدوا ما عليه أحوال الحجيج لتغيرت كثير من أحكامهم التي استنبطوها، وخاصة ما يتعلق بالواجبات والسنن.

وإذا كان للإمام الشافعي مذهب قديم في العراق ومذهب جديد في مصر، فما باله لو عاش عصرنا الحديث؟!

ولعل البعض قد لا يستريح لتعبير «تغيير الأحكام» فإني أوافقه وأتنازل عن هذا التعبير، ويمكنني أن أقول:

إن هناك آراء فقهية لها وجاهتها من ناحية الاستدلال يمكن الأخذ بها بدلاً من آراء أخرى قد يصعب الالتزام بها ويشق الحرص عليها.

وأسوق بعض النماذج :

١- ركعتا الطواف:

من المشروع عقب الطواف أداء ركعتين خلف مقام إبراهيم، ومع كثرة الحجيج وضيق المكان يصبح أداء هاتين الركعتين مغامرة قد تودي بحياة الإنسان.

ومن العجيب المذهل أن تجد من يصر عليهما بأي وضع كان.

---

(١) الإيضاع: الإسراع.

ولو استعرضنا حكم الفقهاء فيها نجد ما يأتي[1] :

(واختلفوا هل هما واجبتان أم سنتان؟

وعندنا فيه خلاف حاصله ثلاثة أقوال، أصحها أنهما سنة، والثاني: أنهما واجبتان، والثالث: إن كان طوافًا واجبًا فواجبتان وإلا فسنتان.

وسواء قلنا: واجبتان أو سنتان لو تركهما لم يبطل طوافه، والسنة أن يصليهما خلف المقام، فإن لم يفعل ففي الحجر، وإلا ففي المسجد، وإلا ففي مكة وسائر الحرم، ولو صلاهما في وطنه وغيره من أقاصي الأرض جاز، وفاتته الفضيلة، ولا تفوت هذه الصلاة ما دام حيًّا).

بالله عليك لماذا هذا الإصرار على هذه المغامرة طالما أن في الأمر سعة؟!

ولماذا لا تؤدى هاتان الركعتان في أي مكان خال في المسجد؟!

٢- تقبيل الحجر الأسود:

من مألوف المشاهد أن تجد اقتتالاً عنيفًا حول الحجر الأسود، وكثيرًا ما تجد النساء في وضع غير كريم أثناء محاولتهن تقبيل الحجر، ومن المضحك المبكي أن تجد حاجًّا يدع صلاة الفريضة مع الإمام كي يخترق الصفوف ويتسنى له التقبيل!!..

ولو لاحظت الصفوف الأولى في صلاة الجماعة بالحرم عند الانتهاء من التسليم لشاهدت محاولات الوثب السريع والعالي!!..

والأمر في حقيقته الشرعية أهون من هذا كله..

فحقيقة الطواف الشرعية أن يبتدئ من الحجر الأسود، ويجعل البيت على يساره، ويطوف سبعة أشواط.

ويشرع في البداية تقبيل الحجر أو استلامه[2] بمعنى أن يقبل الحجر أو

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، ج٨، ص ١٧٥.

(٢) الاستلام من السلام -بكسر السين - وهي الحجارة أو من السلام - بالفتح - الذي هو التحية.

يلمسه بيده ثم يقبلها. .

وهذا التقبيل أو الاستلام ليس من شروط الطواف ولا واجباته، بل هو سنة عند التمكن، ومن لا يستطيع أشار إليه بيده على بعد ومضى في طوافه. .

وموقف عمر بن الخطاب ﷺ مشهور. . ففي الصحيح أن عمر قبَّل الحجر وقال: إني لأقبلك، وإني لأعلم أنك حجر، ولكني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك.

وفي رواية أخرى:

والله إني لأقبلك، وإني أعلم أنك حجر، وأنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك.

٣- الرمل في الطواف والسعي:

رغم كثرة الطائفين، وضيق المكان، يصر البعض على الرمل[1] في الطواف والسعي، ولنتصور مدى الإيذاء الذي يحصل من هذا والناس لا يجدون متنفسًا، وقد يصحب الرجل زوجه الحامل أو أمه العجوز التي تتهادى في خطواتها، فيأتي من يطعنها من الخلف أو يقذف بها إلى الأمام، ويحصل ارتباك، الله أعلم بنتائجه.

ومن الغرائب أن ترى نساء يحاولن مثل هذا الإسراع المتثاقل.

والمعروف فقهًا أن الرمل- في أحسن الأقوال- سنة، ويرى البعض أنه فضيلة، واتفق الفقهاء على أنه لا رمل على النساء.

وقد اختلف الصحابة في مشروعية الرمل.

فابن عباس وعمر وغيرهم يرون أن سببه واقعة حال وانتهت، وهي إظهار قوة المسلمين أمام المشركين.

---

(١) الرمل: إسراع المشي مع تقارب الخطى.

ففي صحيح البخاري: أن عمر رضي الله عنه قال: وما لنا والرمل، إنما كنا راءينا به المشركين ولقد أهلكهم الله، ثم قال: شيء صنعه رسول الله ﷺ فلا نحب أن نتركه.

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن ذلك - كما في صحيح مسلم:

إن قومك يزعمون أنه سنة؟ فقال: صدقوا وكذبوا.

فقيل له: ما قولك صدقوا وكذبوا؟!

قال: إن رسول الله ﷺ قدم مكة فقال المشركون: إن محمدًا وأصحابه لا يستطيعون أن يطوفوا بالبيت من الهزال وكانوا يحسدونه، فأمر رسول الله ﷺ أن يرملوا ثلاثًا ويمشوا أربعًا.

وجمهور العلماء يرى أن الرمل سنة، لأن الرسول ﷺ فعله في حجة الوداع، وعلى كل فالسنة تفعل عند المقدرة، ولا حرج على المسلم إذا تركها لعذر.

٤- جبل الرحمة:

يتزاحم الحجاج في عرفات نحو جبل الرحمة، ويتسلقون أحجاره، ويتدافعون نحو قمته، مما يعرضهم لمتاعب ومشاق، فضلاً عما قد يحدث من هلكة البعض نتيجة التدافع أو اختلال التوازن.

وجبل الرحمة بوسط أرض عرفات.

وقد وقف الرسول ﷺ عند صخرات في أسفل جبل الرحمة وقال: «**وقفت ههنا وعرفة كلها موقف**».

وهذا من رفق النبي بأمته وشفقته عليهم، فهو ﷺ كما وصفه ربه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

فليس مشروعًا مطلقًا صعود الجبل، وليس من السنة مطلقًا الوصول إلى قمته.

فلم هذا العنت في أداء شعائر الله؟!

ولم هذا الحرص على المهلكة في غير منفعة دينية أو دنيوية؟!

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[١].

٥- الإفاضة من عرفات:

المعلوم شرعًا أن النبي ﷺ وقف بعرفة حتى غابت الشمس واستيقن غروبها فدفع إلى المزدلفة.

والواقع الآن أن الحجاج قاربوا ثلاثة ملايين، فانتظارهم إلى ما بعد المغيب ثم خروجهم من عرفة إلى المزدلفة بمواصلاتهم المعهودة يسبب حرجًا كبيرًا ومشاق كثيرة، حتى لقد علمت أن بعضهم خرج من عرفة بسيارته عقب الغروب فوصل إلى منى ظهرًا ولم يبرح سيارته على مدى خمس عشرة ساعة، وهي مسافة لا تستغرق في الأوقات العادية بالسيارة أكثر من ثلث ساعة، فهي عشرون كيلومترًا تقريبًا.

إن الحج عرفة.

والوقوف ركن أساسي من أركان الحج، لا يقع الحج بدونه.

ومن فاته الوقوف فاته الحج.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو:

ما حكم هذا التوقيت في الخروج من عرفة؟

جمهور العلماء على أن وقت الوقوف ما بين زوال الشمس يوم عرفة وطلوع الفجر يوم النحر، فمن وقف في أي ساعة من هذا الوقت صح حجه وأدى فريضته.

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

ويرى الإمام أحمد أن وقت الوقوف يبدأ من فجر يوم عرفة وشدد الإمام مالك فجعل صحة الحج موقوفة على إدراك جزء من الليل، سواء كان وحده أو مع جزء من النهار.

فما المانع أن نأخذ برأي الجمهور وخاصة مع هذه الكثرة الكاثرة، وهذه المواصلات التقليدية، وهذه الطرق التي لا تفي بحاجة هذه المناسبة الكبرى؟!

ما المانع أن نسمح للحجاج بالإفاضة قبل الغروب، حتى تنساب هذه الموجات البشرية في سهولة ويسر، والله تعالى قد أطلق الإفاضة ولم يقيدها بوقت فقال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾؟![1].

إننا نقترح أن تكون الإفاضة من عرفات على مرحلتين: مرحلة تبدأ قبل الغروب أو عقبه مباشرة، ومرحلة تبدأ بعد منتصف الليل، وذلك مما ييسر النزول إلى المشعر الحرام والمزدلفة، وييسر سبل المواصلات، ويباعد الإرهاق عن الحجيج، فلا يجلسون في السيارات يعانون المشاق، وتتحقق شعيرة البقاء حتى طلوع الشمس بالمزدلفة لفريق من الحجاج..

كذلك نقترح أن يقسم الحجاج إلى دفعتين في النزول من منى: نصف ينزل في اليوم الثاني من أيام التشريق، ونصف ينزل في اليوم الثالث من أيام التشريق.. وبذلك نقيم شعيرة البقاء والتأخر إلى اليوم الثالث لرمي الجمار، تلك الشعيرة التي تناساها الناس ولم يعودوا يقومون بها...، ويساعد ذلك على تخفيف زحام طواف الوداع، فلا يجتمع الحجيج جميعًا في مساء اليوم الثاني من أيام التشريق، فيضيق بهم المكان على سعته في الطابقين الأول والثاني للحرم المكي الشريف، وسطح المسجد الحرام..

٦- الهدى:

في كل عام تتجدد مشاكل تتعلق بالهدي، فالملاحظ أن الهدي لم يعد

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٨ .

ينتفع به الانتفاع الشرعي المقصود، وأصبح من المألوف أن يحرق الهدي بعد ذبحه أو يدس في التراب بكميات هائلة منعًا من انتشار الأوبئة.

وهذا الإهدار للثروة الحيوانية مرجعه إلى جهل بأحكام الدين وفقه الشريعة، فكثير من الحجاج يظن أن الحج موقوف على الذبح، وأن من لم يذبح ضاع حجه وفسدت عبادته.

ولكي نعبد الله على بصيرة ونحافظ على نعم الله ونتنفع بها الانتفاع الصحيح ينبغي ملاحظة مايلي:

أولاً: هناك فرق بين الأضحية والهدي.

فالهدي متعلق بمناسك الحج ومحظوراته، أما الأضحية فهي عامة على المسلمين الموسرين، لقوله ﷺ: «**إن أول مانبدأ به في يومنا هذا**[1] **أن نصلي ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء**».

والأضحية في العيد مقصود بها التوسعة على المسلمين.

ويمكن أن نفتي -ونحن مطمئنون- أنه لا أُضحية على الحاج، وقد قال بهذا الرأي أئمة أعلام.

يقول ابن رشد:

اختلف العلماء في الأضحية، هل هي واجبة أم هي سنة؟

فذهب مالك والشافعي إلى أنها من السنة المؤكدة.

ورخص مالك للحاج في تركها بمنى، ولم يفرق الشافعي في ذلك بين الحاج وغيره، وقال أبوحنيفة: الأضحية واجبة على المقيمين في الأمصار الموسرين، ولا تجب على المسافرين، وخالفه صاحباه أبو يوسف ومحمد فقالا:

---

(١) يوم عيد الأضحى.

إنها ليست بواجبة[١].

ثانيًا: إن بعض أنواع الهدي يكون على التخيير :

بمعنى أن هناك بدائل يمكن فعلها، فمثلاً محظورات الإحرام وهي لبس المخيط أو المحيط المعمول على قدر البدن أو قدر عضو منه، أو تغطية الرأس بالنسبة للرجل، أو مس الطيب.. إلخ.

هذه المحظورات لا يتوقف صحة الحج عليها، فلو أدى المسلم الفريضة بملابسه العادية لعذر أو غير عذر صح حجه وسقطت عنه الفريضة، وشرع الله تعالى جبرًا لذلك فدية هي على التخيير بين صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين أو ذبح شاة.

قال الله تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾[٢].

من هنا يمكن للمسلم أن يدع الذبح ويقتصر على الصيام أو الإطعام، ولا حرج عليه.

ثالثًا: هناك نقطة مهمة تتعلق بمكان الذبح :

فالواقع الآن أنهم يذبحون في مكان معين بمنى يلقون فيه الهدي إلقاء لا انتفاع معه.

ولو أنهم فرقوا الذبح حيث أحل الله لأمكن الانتفاع به، فالرسول ﷺ نحر في مكان خاص بمنى ثم قال: «**نحرت ههنا، ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم**».

ومكان النحر في الفقه الإسلامي أوسع من منى، فالحرم كله منحر ولنقرأ هذا النص:

وأما محله فهو البيت العتيق كما قال تعالى: ﴿**ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ**﴾، وقال: ﴿**هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ**﴾.

---

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج١ ، ص ٤٢٩ - طبعة الحلبي سنة ١٩٧٥ .

(٢) سورة البقرة، الآية ١٩٦ .

وأجمع العلماء على أن الكعبة لا يجوز لأحد فيها ذبح، وكذلك المسجد الحرام، وأن المعنى في قوله: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أنه إنما أراد به النحر بمكة إحسانًا منه لمساكينهم وفقرائهم.

وكان مالك يقول: إنما المعنى في قوله: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ مكة، وكان لا يجيز لمن نحر هديه في الحرم إلا أن ينحره بمكة.

وقال الشافعي وأبو حنيفة: إن نحره في غير مكة من الحرم أجزأه.

وقال الطبرى: يجوز نحر الهدي حيث شاء المهدي إلا هدي القران وجزاء الصيد فإنهما لا ينحران إلا بالحرم[1].

فنحن هنا أمام سعة فقهية ويسر تشريعي.

ولعل في توسعة المكان توسعة على الناس وتقديمًا للمعونة إلى أصحابها حيث كانوا.

رابعًا: من النقاط المهمة في الهدي وقت الذبح:

إن توقيت الذبح الآن بيوم النحر وهو اليوم العاشر من ذي الحجة فيه مشقة كبيرة وتكدس ضخم للحوم الهدي لا يتيسر معه الانتفاع بها.

ولو أن المسألة أُحيطت بنظام معين يجعل الذبح على أيام متعددة قبل اليوم العاشر وبعده، لأدى ذلك إلى حسن الانتفاع.

فأيام التشريق هي محل للذبح إجماعًا.

ويرى الشافعي جواز الذبح قبل يوم النحر مطلقًا.

وأرى لو أن كل مجموعة من الحجاج قرروا فيما بينهم توزيع هديهم على أيام إقامتهم بمكة ومنى وأكلوا وأطعموا من حولهم من حجاج بيت الله لكان أكثر ثوابًا وأعظم نفعًا.

خامسًا: إن أنواع الإحرام ثلاثة، تمتع وقران وإفراد:

التمتع: هو أن يحرم الإنسان بالعمرة في أشهر الحج من الميقات ثم يصل

(١) بداية المجتهد لابن رشد، ج١، ص ٣٧٧

إلى الكعبة فيطوف لعمرته ويسعى بين الصفا والمروة ويحلق أو يقصر ثم يحل بمكة ويظل مقيمًا بها حتى تقرب أيام الحج، فينوي الحج في عامه هذا، وهو المقصود بقوله: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾(١).

والقران: هو أن يحرم بالعمرة والحج معًا أو يحرم بالعمرة في أشهر الحج ثم يردفها بالحج قبل أن يشرع في أعمال العمرة.

والإفراد: هو أن يحرم بالحج فقط، ويظل محرمًا حتى يؤدي مناسكه، وعندما يتحلل منه يصح له أداء العمرة إن أراد.

واختلف العلماء في الأفضل من هذه الأنواع الثلاثة، ولكل وجهة والذي أُريد أن أقوله:

إن الإفراد لا هدي فيه، ولا يتعلق به ذبح. وكثير من المسلمين يؤدون الحج إفرادًا ومع ذلك يذبحون، ولو أنهم أُحيطوا علمًا لوفروا على الأمة قدرًا لا بأس به من الأنعام(٢).

٧- الرمي:

من أصعب المواقف في واقع الحج الآن - رمي الجمار في زمانه ومكانه، فالجميع يحرص على موعد معين هو من طلوع الشمس إلى زوالها يوم النحر، ومن بعد الزوال إلى غروب الشمس في باقي أيام التشريق.

وتخيل معي ثلاثة ملايين حاج يرمون في بضع ساعات، ويتحلقون دائرة لا يتجاوز قطرها عشرة أمتار.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٦

(٢) بدأ منذ سنوات مشروع الإفادة من الهدي والأضاحي في موسم الحج بالمملكة العربية السعودية، والذي يسهم فيه البنك الإسلامي للتنمية بالتعاون مع بعض الجهات المختصة، وذلك بأن يقوم الحاج بتوكيل البنك في ذبح الهدى أو الفدية أو الأضحية، أو الصدقة ويدفع الثمن ثم يقوم البنك بتوزيع الذبائح على فقراء الحرم وما زاد ينقل برًّا وبحرًا وجوًّا إلى المحتاجين على مستوى العالم الإسلامي.

وهو مشروع مهم ومفيد جدًّا ويحتاج إلى مزيد من التطوير لتحقيق أقصى فائدة من الهدي والأضاحي في موسم الحج.

ومن أغرب الوقائع أن يحرص النساء والأطفال على خوض تلك المغامرة ويعتبرون الموت أثناءها نوعًا من الشهادة وليس لونًا من إلقاء النفس في التهلكة.

والله تعالى لا يرضى لعباده العنت.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾(١).

ولكي تتضح معالم الرمي في الفقه الإسلامي يجب أن نعرف مايلي:

أولاً: ما حكم الرمي؟

الرمي ليس ركنًا من أركان الحج، بل هو واجب من واجباته، ونعني بذلك أن صحة الحج ليست متوقفة على أداء الرمي، فالحج صحيح وإن لم يرم، كل ما في الأمر أنه لا يمثل الصورة المثلى، وشرع الله جبرًا لترك الرمي كفارة نسك أو إطعام.

(فقال مالك: من ترك رمي الجمار كلها أو بعضها أو واحدة منها فعليه دم.

وقال أبو حنيفة: إن ترك الجمار كلها عليه دم، وإن ترك جمرة واحدة فصاعدًا كان عليه لكل جمرة إطعام مسكين، نصف صاع حنطة، إلى أن يبلغ دمًا بترك الجميع، إلا جمرة العقبة فمن تركها فعليه دم.

وقال الشافعي: عليه في الحصاة مد من طعام، وفي حصاتين مدان وفي ثلاث دم)(٢).

ثانيًا: رخص الله تعالى للحجاج بترك يوم من أيام التشريق الثلاثة الواقعة بعد يوم النحر، بحيث يرمي الحاج يوم العيد ويومين بعده فقط، ثم ينفر من منى قبل مغيب الشمس من اليوم الثاني من أيام التشريق، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾(٣).

ثالثًا: مراعاة مقتضى الحال، ودرء المفاسد أصول شرعية، وقد ثبت في الصحاح أن النبي ﷺ أذن للنساء برمي جمرة العقبة ليلاً قبل زحمة الناس وتكاثرهم.

---

(١) سورة النساء، الآية ٢٨. (٢) بداية المجتهد، ج١، ص ٣٥٣. (٣) سورة البقرة، الآية ٢٠٣.

وتقول السيدة عائشة ﵂ كما في صحيح مسلم:

«استأذنت سودة رسول الله ﷺ ليلة المزدلفة تدفع قبله وقبل حطمة[١] الناس، وكان امرأة ثبطة[٢] فأذن لها، فخرجت قبل دفعه، وحبسنا حتى أصبحنا فدفعنا بدفعه.

ولأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنت سودة فأكون أدفع بإذنه أحب إليّ من مفروح به».

وفي رواية:

«وددت أني كنت استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنته سودة فأصلي الصبح بمنى فأرمي الجمرة قبل أن يأتي الناس».

وكانت أسماء بنت أبي بكر ترحل ليلاً من المزدلفة وترمي جمرة العقبة، وتصلي الصبح في منزلها وتقول: إن النبي ﷺ أذن للظعن[٣].

وكان ابن عمر ﵄ -كما في مسلم أيضًا-: يقدم ضعفة أهله فيقفون عند المشعر الحرام بالمزدلفة بالليل فيذكرون الله ما بدا لهم ثم يدفعون قبل أن يقف الإمام وقبل أن يدفع، فمنهم من يقدم منى لصلاة الفجر، ومنهم من يقدم بعد ذلك، فإذا قدموا رموا الجمرة.

وكان ابن عمر يقول:

أرخص في أولئك رسول الله ﷺ.

رابعًا: الوقت الشائع للرمي وهو من طلوع الشمس إلى زوالها يوم النحر، ومن الزوال إلى الغروب في باقي أيام التشريق - هو السنة والأفضل، لكنه لا ينفي جواز الرمي قبل ذلك أو بعده، فلم نضيِّق على أنفسنا طالما أن في الأمر سعة؟!

---

(١) الزحمة. (٢) ثقيلة.

(٣) بضم الظاء والعين، وبإسكان العين أيضًا - النساء، والواحدة ظعينة، والأصل الهودج الذي تكون فيه المرأة على البعير، فسميت به المرأة مجازًا.

إن هناك ضرورات تحتم استعمال الرخص الشرعية.

وهناك من العلماء مـن رخص في جمع يومين في يوم واحد، سـواء تقدم ذلك اليوم أو تأخر.

وروى عن أبي جعفر محمد بن علي أنه قال:

رمي الجمار من طلوع الشمس إلى غروبها[١].

وفي مذهب الإمـام الشافعي أن وقت رمي يوم النحـر يدخل بنصف ليلته ويستمر إلى آخر أيام التشريق، ويدخل وقـت رمي ما بعده بالزوال ويستمر أيضًا إلى آخر أيام التشريق.

وبعد :

فإن قصدي كله إنما هو التيسير على ضيوف الرحمن، تيسيرًا تحكمه قواعد الشريعة وأصول الفقه وليس انفلاتًا من أحكام الدين.

وإن دين الله يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

• المدينة المنورة في

٢٨/٨/١٤٠٤هـ
٢٩/٥/١٩٨٤م

* * *

(١) راجع بداية المجتهد، ج١، ص ٣٥٣.

المؤلف في سطور

دكتور / محمد سيد أحمد المسير

- أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر.
- عمل أستاذًا مشاركًا، ثم رئيسًا لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية في كلية التربية - فرع جامعة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة ١٩٨٣ - ١٩٨٧م.
- أعير أستاذًا في كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٩٩٣ - ١٩٩٨م.
- شارك في عضوية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف.
- شارك في عضوية جمعية الدراسات الإسلامية بالزمالك.
- يشارك في عضوية الجمعية الفلسفية المصرية.
- يكتب المقالات في المجلات والصحف الإسلامية في مصر والعالم الإسلامي.
- كان الأول على طلاب الجمهورية في الشهادة الإعدادية عام ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م. من معهد شبين الكوم.
- كان السادس عشر على طلاب الجمهورية في الثانوية الأزهرية عام ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م، وكانت المرحلة الثانوية يومئذ خمس سنوات.
- حصل على تقدير ممتاز مع مرتبة الشرف في الشهادة العالية من قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالقاهرة عام ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.
- حصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى من جامعة الأزهر عام ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

● شارك في المؤتمرات والملتقيات الفكرية مثل:

- المؤتمر الحادي عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر في رجب ١٤٠٨ هـ.
- ندوة الفقة الإسلامي في سلطنة عمان في شعبان ١٤٠٨ هـ.
- الموسم الثقافي لشهر رمضان في دولة الكويت ١٤٠٩ هـ.
- الندوة القومية لمواجهة الدس الشعوبي في بغداد من ٢٢-٢٤ لشهر جمادى الأولى ١٤١٠هـ.
- المؤتمر الإسلامي العالمي لمناصرة العراق المنعقد في بغداد، في شهر ذي القعدة ١٤١٠ هـ «قبل الغزو».
- المؤتمر القومي الذي نظمه المركز العربي للإعلام بالقاهرة تحت عنوان «الإدمان قضية العصر» من ١٨-٢٠ صفر ١٤١١هـ.
- المؤتمر الإسلامي العالمي لمناقشة أزمة الخليج، الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة من ٢١-٢٣ صفر ١٤١١ هـ.

- الندوة العلمية لمناقشة حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب، في طهران بتاريخ ٩ - ١٢ سبتمبر ١٩٩١م.
- المهرجان الإسلامي العالمي في الكويت للإفراج عن الأسرى والمحتجزين في سجون العراق من ١٩-٢١ يناير ١٩٩٢م.
- الموسم الثقافي لشهر رمضان في دولة الإمارات العربية المتحدة ١٤١٢هـ.
- ندوة الإعلام الإسلامي بين تحديات الواقع وطموحات المستقبل، التي نظمتها مؤسسة «اقرأ» الخيرية، بالتعاون مع جامعة الأزهر في ذي القعدة ١٤١٢هـ - مايو ١٩٩٢ م.
- سافر مع وزير الأوقاف المصري ضمن وفد رسمي لزيارة دول الكومنولث الإسلامية بتاريخ ١٣ - ٢٥ سبتمبر ١٩٩٢ م.
- المؤتمر الثاني عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر من ٢-٥ لشهر جمادى الأولى سنة ١٤١٣ هـ.
- مؤتمر التوجيه الإسلامي للعلوم الذي نظمته رابطة الجامعات الإسلامية بالاشتراك مع جامعة الأزهر سنة ١٤١٣ هـ.
- الندوة العلمية «في قلب الشرق: قراءة معاصرة لأعمال لوي ماسنيون»، والتي نظمها قسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة مع المركز الفرنسي للثقافة والتعاون يومي ١٤ ، ١٥ / ٣ / ١٩٩٩ م.
- المؤتمر الدولي الرابع للفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم - جامعة القاهرة تحت عنوان «الإسلام في عصر العولمة» بتاريخ ١٨، ١٩ من المحرم ١٤٢٠ هـ - ٤، ٥ من مايو ١٩٩٩م.
- ندوة «الفساد الاقتصادي - الواقع المعاصر والحل الإسلامي» التي أقامها مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر بتاريخ ٢٢ : ٢٣ من مارس ٢٠٠٠م.
- المؤتمر الدولي الخامس للفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم - جامعة القاهرة، تحت عنوان «الإسلام وحوار الحضارات» بتاريخ ٢٧ / ٢٨ من المحرم ١٤٢١ هـ - ٢، ٣ من مايو سنة ٢٠٠٠م.

كتب للمؤلف

- **في العقيدة:**

١- في نور العقيدة الإسلامية.
٢- أدب الحديث عن الله.
٣- علم التوحيد للشهادة الإعدادية الأزهرية.
٤- التمهيد في دراسة العقيدة الإسلامية.
٥- الإلهيات في العقيدة الإسلامية. «دار الاعتصام».
٦- الشفاعة في الإسلام.

٧- النبوة المحمدية : دلائلها وخصائصها. «دار الاعتصام».

- **في الفلسفة :**

٨- الروح في دراسات المتكلمين والفلاسفة. «دار المعارف».
٩- المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه. «دار المعارف».
١٠- قضايا إنسانية في الفكر الديني والفلسفي . «مكتبةالصفا».

- **في الأديان :**

١١- المدخل لدراسة الأديان. «دار الندى».
١٢- أصول النصرانية في الميزان . «مكتبة الصفا».
١٣- أوروبا والنصرانية.
١٤- المسيح ورسالته في القرآن. «مكتبة الصفا».
١٥- عبادة الشيطان في البيان القرآني والتاريخ الإنساني. «دار الوفاء».

- **في الفرق الإسلامية :**

١٦- الحوار بين الجماعات الإسلامية.
١٧- مقدمة في دراسة الفرق الإسلامية «مكتبة النهضة المصرية».
١٨- قضية التكفير في الفكر الإسلامي.

- **في السيرة النبوية والحديث الشريف :**

١٩- الرسول في رمضان. «مكتبة الصفا».
٢٠- الرسول حول الكعبة. «مكتبة الصفا».
٢١- الرسول والوحي(١).
٢٢- الرسول وقضايا المجتمع. «المؤسسة العربية الحديثة».
٢٣- الرسول والموافقات. «المؤسسة العربية الحديثة».
٢٤- وعندئذ قال الرسول. «دار المعارف».
٢٥- أيسر البيان في شرح الحكمة النبوية. «دار الندى».

- **في الشريعة الإسلامية :**

٢٦- محاورة تطبيق الشريعة. «المؤسسة العربية الحديثة».
٢٧- نحو دستور إسلامي. «دار الندى».
٢٨- أخلاق الأسرة المسلمة. «دار الندى».

- **تحقيق مؤلفات فضيلة الدكتور / سيد أحمد رمضان المسير -رحمه الله تعالى- :**

٢٩- السنة مع القرآن . «دار الندى».
٣٠- السنة المطهرة. «المؤسسة العربية الحديثة».
٣١- إلزام القرآن للماديين والمليين. «المؤسسة العربية الحديثة».
٣٢- دراسات قرآنية.

(١) صدر في طبعة جديدة بعنوان: النبوة المحمدية.

الفهرس



في هذا الكتاب

في إطار الدراسة الموضوعية حول فلسفة السيرة، يقدم المؤلف هذا الكتاب (الرسول ﷺ حول الكعبة) تاريخًا وأحداثًا وشعائر.

لقد عرض المؤلف مرحلة الانتقال للكعبة من العصر الجاهلي إلى العهد الإسلامي منذ ميلاد محمد بن عبد الله ﷺ، إلى يوم الحج الأكبر في العام التاسع للهجرة، حيث نزلت (سورة براءة)..

ثم وقف المؤلف وقفة متأنية مع الإسراء والمعراج في توثيق رواياته، وفقه أحداثه، وبيان آيات ربه الكبرى..

ثم ساق المؤلف حديثًا شائقًا عن رحلات الرسول ﷺ لأداء العمرة، والمواقف المشهودة التي صاحبت أداء هذه المناسك، إلى أن جاء العام العاشر للهجرة وخرج الرسول ﷺ لأداء حجة الإسلام، يصحبه مائة ألف أو يزيدون، يرددون في جنبات الكون: لبيك اللهم لبيك..

وأخيرًا .. يقدم المؤلف تأملات حول واقع الحج المعاصر، تحكمه فيها قواعد الشريعة وأصول الفقه، وصولاً إلى الرفق بضيوف الرحمن..



مكتبة الصفا
١٢٧ ميدان الأزهر - القاهرة
١ درب الأتراك - خلف الجامع ال
٠١٠١٤٣١١١٤ - ١٤٧٣٢٠